قسم النثر

مجموعة تمثل الأدب العربي الإسلامي في جميع مظاهره ومناحيه الأدبية والتاريخية والتهذيبية

من العصر الإسلامي الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري

للعلامة الأستاذ أبي الحسن علي الحسني الندوي

رئيس جامعة دار العلوم - ندوة العلماء - بلكهنؤ

الجزء الثاني

تعليق

أبي الفضل عبد الحفيظ البلياوي

أستاذ الأدب في دار العلوم - ندوة العلماء سابقاً

ملتزم الطبع والنشر

مؤسسة الصحافة والنشر

ص.ب. ٩٣، ندوة العلماء، لكهنؤ

مختارات
من أدب العرب
(٢)

مُقدّمة الجُزء الثَّاني

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

أما بعد! فقد ظهر كتاب «مختارات من أدب العرب» عام ١٣٥٩هـ في جزء واحد ، وكانت الفكرة التي تسيطر على الكتاب عند تأليفه هي أن نختار أجمل النصوص وأكثرها حيوية في أدبنا العربي الإسلامي ، بصرف النظر عن مستواها اللغوي ، فكانت المختارات من درجات مختلفة في المادة اللغوية والمستوى الأدبي ، كان الطالب يتأرجح بين السهولة والصعوبة ، وربما كان في ذلك ترويح لنفسه ، إلا أننا رأينا في الزمن الأخير ، وأشار به علينا بعض رجال التعليم ، أن نقسم هذه المختارات في قسمين باعتبار درجاتها اللغوية ومستواها الأدبي ، ليسهل تطبيق هذا الكتاب والانتفاع به في مناهج التعليم العربية ، وليوافق مستوى الطلبة من طبقتين مختلفتين ، وقد اضطرنا بعض الأحيان ملاحظة الناحية التاريخية والحرص على استعراض الأدب العربي في تقدمه وتطوره وفي مراحله التاريخية المختلفة ، إلى عرض نماذج للنثر الفني ، لا يرتضيها الذوق العربي السليم ، ويرى فيها الناقد انحرافاً عن السليقة العربية الأولى وخضوعاً للآداب العجمية ، وعوامل اجتماعية ، ولكنه واقع تاريخي وثروة لغوية أدبية وأسلوب من أساليب الكتابة ، لم يسع المؤلف الإعراض عنها فأدخلها في الكتاب تقريراً للحقيقة ووفاء للتاريخ .

وهكذا جاء الكتاب في جزأين ، الجزء الأول والثاني ، بعد ما كان جزءاً واحداً وانتهزنا فرصة إعادة الطبع ، فأضفنا إلى الكتاب بعض نصوص أخرى لرجال لا يعدون من الأدباء المحترفين المنقطعين إلى

الأدب والكتابة ، على أنها لا تقل في جمالها الأدبي وحسن التعبير وصدق التصوير عن النصوص الأدبية التي يقع عليها الاتفاق ، بل تفوق كثيراً منها .

وقد ساعدني في إعداد الطبعة الثانية الأستاذ محمد الرابع الحسني أستاذ الأدب في دارالعلوم وكان له فضل في اختيار بعض القطع الجديدة .

وكان الاستعجال في الطبعة الأولى قد حال دون الشرح الوافي والحل الكافي للمفردات الغريبة وإيضاح المقصود ، وكان زمن المؤلف يضيق عن إتمام هذه الناحية لأشغاله الكثيرة المتنوعة ، فقيض الله لهذا الغرض الأستاذ أبا الفضل عبد الحفيظ البلياوي (رحمه الله) مدرس الأدب العربي في دار العلوم ، وعنده الخبرة التامة بمدارك الطلبة وما يحتاجون إليه من الشرح وحل الكلمات الغريبة وما يشكل عليهم ، فتناول الكتاب واعتنى بحل الغريب وإيضاح الغامض وكشف القناع عن مقاصد الكتاب ، وبذل في ذلك وقتاً طويلاً وتحمل عناء كبيراً ، وانتسخ الكتاب بقلمه ، ومثله للطبع ، فللأستاذ الفاضل شكر المؤلف وتقدير المعلمين وثناء الطلبة ، وفوق كل ذلك ثواب المحسنين وأجر العاملين .

وقد حَلَّينا جيدَ هذا الكتاب ـ كما فعلنا في الجزء الأول ـ بقطع مقتبسة من القرآن الحكيم ، وهذا الذي شرف قدر الأدب العربي ـ إذ نزل بلغته ـ وجعله أدباً عالمياً وأدباً خالداً ، ليعلم الطلبة أنه من نوع آخر . وأنه ليس من مدارك البشر ، إن هو إلا وحي يوحى ، وأتبعنا ذلك مختارات من الحديث النبوي الشريف ، ليعلموا أنه في الطبقة الأولى من البلاغة البشرية والحكمة النبوية .

ولله الحمد في الأولى والآخرة .

أبو الحسن علي الحسني الندوي

لكهنؤ الهند لعشر خلون من ربيع الأول ١٣٩١ هـ

٦ مايو ١٩٧١ م

الآيــات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾
وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ(١) وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ
ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ
مُّتَجَٰوِرَٰتٌ(٢) وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ(٣) وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ
وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾
۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا

(١) أي الجبال الثوابت الرواسخ.

(٢) التي جاورت بعضها بعضاً.

(٣) إذا خرج نخلتان أو أكثر من أصل واحد فكل واحدة منها صنو.

خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ
ٱلۡمَثُلَٰتُۗ(١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٦﴾
وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴿٧﴾
ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ(٢) ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ
بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ
وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ(٣) بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ
يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ
وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ
ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ
وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي
ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ(٤) ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا
كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ
مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩(٥) ﴿١٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ

---

(١) جمع مثلة وهي نقمة تنزل بالإنسان فيجعل مثالاً يرتدع به غيره.
(٢) أي تفسده فتجعله كالماء الذي تبتلعه الأرض.
(٣) أي الذاهب في سربه أي طريق كان.
(٤) أي الأخذ بالعقوبة.
(٥) جمع أصيل وهو ما بين العصر والمغرب.

يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه
فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار (١٦) أنزل من السماء ماء فسالت
أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا (١) رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع
زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء (٢) وأما ما ينفع
الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال (١٧) للذين استجابوا لربهم الحسنى
والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به
أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد (١٨) ۞ أفمن يعلم أنما أنزل إليك
من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب (١٩) الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون
الميثاق (٢٠) والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء
الحساب (٢١) والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا
وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار (٢٢)

(صدق الله العظيم) سورة الرعد : ١-٢٢

---

(١) ما يعلو الماء ونحوه من الرغوة

(٢) هو ما يرمي به الوادي أو القدر من الغثاء إلى جوانبه

الـثَّبـات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ(١) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ(٢) وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ(٣) وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا

---

(١) نزلت هذه الآيات في غزوة الأحزاب وتسمّى غزوة الخندق، ووقعت سنة خمس للهجرة على القول المشهور، وعلى المعلم أن يلخص هذه الغزوة، ويصور الجو الذي وقعت فيه ليتيسّر للتلاميذ فهم هذه الآيات وتذوّقها.

(٢) جمع حنجرة وهي الحلقوم، وبلغت القلوب الحناجر كناية عن شدة الخوف.

(٣) غير حصينة تخشى عليها.

قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ(١) مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ(٢) إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً(٣) عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم(٤) بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ (صدق الله العظيم) [سورة الأحزاب: ٩-٢٧]

* * *

(١) المثبطين.

(٢) اسم فعل بمعنى الدعاء إلى الشيء كتعال فتكون لازمة، وقد تستعمل متعدية نحو هلم شهداءكم أي أحضروهم.

(٣) جمع شحيح، والشح هو البخل مع الحرص.

(٤) طعنوا وآذوا بالكلام.

صفة رسول الله ﷺ

«كان رسول الله ﷺ متواصل[١] الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة ، طويل السكت لا يتكلم في غير حاجة ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه[٢] ، ويتكلم بجوامع الكلم[٣] ، كلامه فصل[٤] لا فضول ولا تقصير ؛ ليس بالجافي[٥] ولا المهين[٦] ، يعظم النعمة وإن دقت[٧] ، لا يذم منها شيئاً ، غير أنه لم يكن يذم ذواقاً[٨] ولا يمدحه ، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها[٩] ، فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث اتصل بها وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه

(١) أي لا ينفك حزن عن حزن يعقبه.

(٢) جمع شدق بالكسر طرف الفم أي أنه يستعمل جميع فمه للتكلم ولا يقتصر على تحريك شفتيه كفعل المتكبرين.

(٣) أي بكلمات قليلة الحروف جامعة لمعانٍ كثيرة، وقيل المراد بالجوامع القواعد الكلية المحتوية على الفروع المتكثرة.

(٤) الفاصل بين الحق والباطل.

(٥) الغليظ الطبع السيء الخلق العديم البر.

(٦) يروى بضم الميم وفتحها فالضم على الفاعل من أهان أي لا يهين من يصحبه والفتح على المفعول من المهانة أي الحقارة والابتذال فالمعنى لم يكن غليظ الخلق ولا ضعيفه بل كان معتدلاً من أنواع المهابة والوقار والجلالة.

(٧) صغرت وقلت.

(٨) المأكول والمشروب فعال بمعنى المفعول من الذوق.

(٩) أي ولا يغضبه أيضاً ما كان له علاقة بالدنيا.

اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح[١] ، وإذا فرح غض طرفه ، جُل[٢] ضحكه التبسم ، يفتر[٣] عن مثل حب الغمام[٤] ، وكان فخماً[٥] مفخماً[٦] يتلألأ[٧] وجهه تلألؤ القمر ليلةَ البدر ، مسيح[٨] القدمين ينبو[٩] عنهما الماء ، إذا زال زال[١٠] قلعاً يخطو تكفياً[١١] ويمشي هونا ذريع[١٢] المشية . إذا مشى كأنما ينحط من صبب[١٣] ، وإذا التفت التفت جميعاً[١٤] ، خافض الطرف نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة[١٥] ، يسوق[١٦] أصحابه ، يبدأ من لقي بالسلام»[١٧] .

---

(١) جد في الإعراض وبالغ فيه .

(٢) معظمه وأكثره .

(٣) من افتر ضحك ضحكاً حسناً حتى بدت أسنانه من غير قهقهة .

(٤) أي البرد بفتحتين .

(٥) بفتح الفاء وسكون الخاء أي عظيماً في نفسه .

(٦) أي المعظم في الصدور والعيون .

(٧) أي يستنير .

(٨) أملسهما .

(٩) يتباعد ويتجافى .

(١٠) أي رفع رجله عن الأرض رفعاً بائناً بقوة لا كمن يمشي اختيالاً ويقارب خطاه تبختراً .

(١١) جملة مؤكدة لما قبلها وهو بكسر الفاء المشددة بعدها ياء أي يمشي مائلاً إلى سنن المشي لا إلى طرفيه يقال يتكفأ فلان أي يتمايل إلى قدام .

(١٢) أي سريعها .

(١٣) أي محل منحدر .

(١٤) أي لا يسارق النظر .

(١٥) وهي مفاعلة من اللحظ وهو النظر باللحاظ يقال لحظه ولحظ إليه أي نظر إليه بمؤخر العين والمراد أن جل نظره في غير أوان الخطاب الملاحظة فلا يناقض قوله إذا التفت التفت جميعاً وتحمل الملاحظة على حال العبادة .

(١٦) أي يقدمهم أمامه ويمشي خلفهم تواضعاً .

(١٧) عن الحسن بن علي ، عن خاله هند بن أبي هالة .

«لم يكن فاحشاً[١] متفحشاً[٢] ولا صخاباً[٣] في الأسواق ، ولا يجزي السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح[٤] . ما ضرب بيده شيئاً قط إلاَّ أن يجاهد في سبيل الله ولا ضرب خادماً ولا امرأة ، ما رأيته منتصراً[٥] من مظلمة ظُلمها قط ما لم ينتهك من محارم الله تعالى شيء ، فإذا انتهك من محارم الله تعالى كان من أشدهم غضباً ، وما خُيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، (وإذا دخل بيته) كان بشراً من البشر يفلي[٦] ثوبه ويحلب شاته ويخدم نفسه .

كان يخزن لسانه إلا فيما يعنيه ويؤلّفهم ولا ينفرهم. ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي على أحد منهم بشره[٧] ولا خلقه. ويتفقد[٨] أصحابه ويسأل عما في الناس ، ويحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبيح ويوهيه[٩] معتدل الأمر غير مختلف ، ولا يغفل مخافة أن يغفلوا ويملوا ، لكل حال عنده عتاد[١٠] ، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه ، الذين يلونه من الناس خيارهم ، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة[١١]

---

(١) أي ذو فحش من القول والفعل وإن كان استعماله في القول أكثر منه في الفعل والصفة.
(٢) أي ولا المتكلف به أي لم يكن الفحش له خلقياً ولا كسبياً.
(٣) أي صيَّاحاً.
(٤) صفح عنه : أعرض عنه وتركه، بابه فتح .
(٥) منتقماً.
(٦) فلا يفلي فلياً رأسه أو ثوبه : نقاهما من القمل .
(٧) بالكسر طلاقة الوجه وبشاشته .
(٨) أي يتعرف ويطلب من غاب منهم .
(٩) بتشديد الهاء وتخفيفها من التوهية والإيهاء : يضعفه .
(١٠) بالفتح هو العدة والتأهب مما يصلح لكل ما يقع ج أعتدُ وعُتُد وأعتِدة .
(١١) المداراة وهي إصلاح أحوال الناس بالمال والنفس .

ومؤازرة[١]؛ لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك ، يعطي كل جلسائه بنصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، من جالسه أو فاوضه[٢] في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف ، ومن سأله حاجته لم يرده إلا بها أو بميسور من القول ، قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أباً ، وصاروا عنده في الحق سواء ، مجلسه مجلس علم وحياء وصبر وأمانة لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤبن[٣] فيه الحرم ولا تنثى[٤] فلتاته[٥]؛ متعادلين[٦] يتفاضلون فيه بالتقوى ، متواضعين يوقرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب[٧]»

«كان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب[٨] ليس بفظّ[٩] ولا غليظ ولا صخاب ولا فحّاش ولا عياب ولا مشاح[١٠] ، يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤيس منه ولا يجيب[١١] فيه؛ قد ترك نفسه من ثلاث: المراء[١٢]

---

(١) المعاونة.

(٢) أي عامله في حاجة أو خالطه.

(٣) بضم التاء وسكون الهمزة من الابن وهو العيب والتهمة أي لا تقذف ولا تعاب.

(٤) بضم التاء وسكون النون وفتح المثلثة أي لا تشاع ولا تذاع.

(٥) أي زلاته ومعائبه على تقدير وجود وقوعها جمع فلتة وهي ما يبدر من الرجل من سقطة.

(٦) متساوين.

(٧) عن الحسن بن علي عن الحسين بن على عن علي بن أبي طالب.

(٨) أي سريع العطف كثير اللطف جميل الصفح، وقيل قليل الخلاف، وقيل كناية عن السكون والوقار والخشوع والخضوع.

(٩) الغليظ السيىء الخلق الخشن الكلام ج أفظاظ، وفي القرآن: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾. [آل عمران: ١٥٩]

(١٠) اسم فاعل من باب المفاعلة من الشح وهو البخل وقيل أشده.

(١١) أي لا يجيب أحداً فيما لا يشتهي بل يسكت عنه عفواً وتكرماً.

(١٢) الجدال.

والإكبار وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث كان لا يذمّ أحداً ولا يعيبه ولا يطلب عورته. ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه. وإذا تكلم أطرق[١] جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير فإذا سكت تكلموا لا يتنازعون عنده الحديث. ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم عنده حديث أولهم[٢] يضحك مما يضحكون ويتعجب ممّا يتعجبون ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته حتى إن كان أصحابه يستجليونهم ويقول إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فارفدوه[٣] ولا يقبل الثناء إلا من مكافىء[٤] ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز[٥] فيقطعه بنهي أو قيام.

أجود الناس صدراً وأصدق الناس لهجة [٦] وألينهم عريكة [٧] وأكرمهم عشيرة من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبَّه ويقول ناعته لم أرَ قبله ولا بعده مثله ﷺ»[٨]

* * *

(١) أمالوا رأسهم وأقبلوا ببصرهم إلى صدورهم.

(٢) أي حديث أفضلهم أو كأول تكلمهم أي لا عن ملال وسآمة.

(٣) الإرفاد الإعطاء والإعانة.

(٤) أي مقارب في مدحه غير مجاوز به عن حد مثله ولا مقصر به عما رفعه الله إليه من علو مقامه.

(٥) أي يتجاوز عن الحد أو الحق.

(٦) اللسان.

(٧) الطبيعة ج عرائك.

(٨) عن الحسن بن علي عن الحسين بن علي عن علي رضي الله عنهم ملتقطاً من جزء الشمائل للترمذي.

صفـة سَيّدنا عُمَر بنْ الخطّـاب رضي الله عنه

رجل لا يحب الباطل وليس من الباطل في شيء ، إن الله جعل الحق على لسانه وقلبه ، وهو الفاروق فرّق الله به بين الحق والباطل ، أفضل (الناس) مقدرة وأملكهم لنفسه ، أشدهم في حال الشدة وأسلسهم في حال اللين ، وأعلمهم برأي ذوي الرأي. لا يتشاغل بما لا يعنيه ، ولا يحزن لما ينزل به ، ولا يستحيي من التعلّم ، ولا يتحير عند البديهة ، قوي على الأمور لا يخور[١] لشيء منها حده بعدوان ولا تقصير ، يرصد[٢] لما هو آت عتاده من الحذر والطاعة ، رشيد الأمر تنطق السكينة على لسانه وقلبه ، من رآه علم أنه خلق غناء للإسلام ، كان ـ والله ـ أجودنا نسيج[٣] وحدِهِ قد أعد للأمور أقرانها. كان إسلامه فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمارته رحمة ، وكان حصناً حصيناً للإسلام ما زلنا أعزة منذ أسلم ، استخلف فأقام واستقام حتى ضرب الدين بجرانه[٤] ، إنما كان مثل الإسلام أيامه مثل أمر مقبل لم يزل في إقبال ، فلما قُتل أدبر فلم يزل في إدبار وإن موته ثلم الإسلام ثلمة[٥] لا ترتق[٦] إلى يوم القيامة .

كان جواداً بالحق بخيلاً بالباطل ، يرضى من الرضى ويسخط من

(١) لا يفتر ولا يضعف.

(٢) رصد كنصر رَصْداً ورصَدَاً، رقبه.

(٣) أي منفرد لا نظير له.

(٤) أي ثبت واستقر من قولهم ضرب البعير بجرانه وألقى جرانه إذا برك.

(٥) الخلل، محل الكسر من المكسور.

(٦) رتق كنصر وضرب رتقا الثوب ضد فتقه.

السخط ، لم يكن مدّاحاً ولا مغياباً[١] ، طيب الطرف عفيف الطرف[٢] ، وقافاً عند كتاب الله ، وكان كالطير الحذري الذي كأنّ له بكل طريق شركا[٣] ، قليل الضحك لا يمازح أحداً ، مقبلاً على شأنه ، إذا تكلم أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ، وهو النّاسك حقاً يمشي في الأسواق ويطوف في الطرقات ، ويقضي بين الناس في قبائلهم ، ويعلمهم في أماكنهم ، رأيته خرج إلى السوق وبيده الدرة[٤] وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من أدم[٥] ، وقدم الجابية[٦] على جمل أورق[٧] تلوح صلعته[٨] للشمس ليس عليه قلنسوة ولا عمامة رجلاه بين شعبتي رحله بلا ركاب ، وطاؤه كساء أنبجاني[٩] ذو صوف هو ركابه إذا ركب وفراشه إذا نزل ، حقيبته[١٠] نمرة[١١] أو شملة[١٢] محشوة[١٣] ليفاً[١٤] هي حقيبته إذا ركب ووسادته إذا نزل، عليه قميص من كرابيس[١٥] قد رسم وتخرق جنبه[١٦] .

---

(١) مبالغة من الغيبة .
(٢) بفتحتين أي الذيل .
(٣) حبائل الصيد ج شُرُك وأشراك .
(٤) السوط ج دِرَر .
(٥) جمع أديم وهو الجلد المدبوغ .
(٦) موضع بالشام سافر إليه سيدنا عمر خليفةً .
(٧) الذي لونه لون الرماد .
(٨) مقدم رأسه وقد سقط شعره .
(٩) نسبة إلى أنبجان موضع يعمل فيه الكساء .
(١٠) ما يحمله الراكب خلفه والخريطة التي يضع فيها وراءه الزاد ونحوه .
(١١) بردة من صوف فيها خطوط بيض وسود ج نمَار .
(١٢) كساء واسع يشتمل به ج شَمَلات .
(١٣) مملوءة .
(١٤) قشر النخل وما شاكله .
(١٥) جمع كرباس وهو الثوب الخشن، والكلمة من الدخيل .
(١٦) ملتقط من سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي .

صِفـة سَيّدنا عَليّ بن أبي طالب رضي الله عنه

عن أبي صالح قال: قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، لضرار بن ضمرة: صف لي عليّا، فقال: أو تعفيني؟ قال: بل صِفْهُ! قال: أو تعفيني؟ قال: لا أعفيك. قال: أما إذاً فإنه ـ والله ـ كان بعيد المدى شديد القوى، يقول فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه ومن نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها[١]، ويستأنس بالليل وظلمته، كان ـ والله ـ غزير[٢] الدمعة، طويل الفكرة، يقلب كفه ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جَشُبَ[٣]، كان ـ والله ـ كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ويبتدئنا إذا أتيناه ويأتينا إذا دعوناه، ونحن ـ والله ـ مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة ولا نبتدئه. فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم؛ يعظم أهل الدين ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله، وأشهد بالله! لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى[٤] الليل سجوفه[٥]، وغارت[٦]

---

(١) بهجتها وغضارتها.
(٢) الكثير بابه كرم.
(٣) جشب كنصر وعلم جَشْباً وككرم جشابة الطعام أي غلظ.
(٤) أسدل.
(٥) جمع سجف بالكسر والفتح: الستر.
(٦) سقطت وانخسفت.

نجومه ، وقد مثل[١] في محرابه قابضاً على لحيته يتململ[٢] تململَ السليم[٣] ، ويبكي بكاء الحزين وكأني أسمعه وهو يقول :

يا دنيا! أبي تعرضت أم لي تشوفت[٤]! هيهات هيهات! غُرى غيري! قد بَـتَـتُّـكِ ثلاثاً لا رجعةَ لي فيك! فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير! آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق!

قال : فذرفت[٥] دموع معاوية ـ رضي الله عنه ـ حتى خرّت على لحيته فما يملكها ، وهو ينشفها بكمه ، وقد اختنق القوم بالبكاء ثم قال معاوية : رحم الله أبا الحسن! كان ـ والله ـ كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال : حزن من ذُبح ولدها في حجرها[٦] فلا ترقأ[٧] عبرتها ، ولا يسكن حزنها[٨] .

* * *

(١) مثل كنصر وكرم مثولاً أي قام منتصباً.
(٢) تململ : تقلب على فراشه مرضاً أو غماً.
(٣) اللديغ أو الجريح المشرف على الموت، سموه به تفاؤلاً بالسلامة.
(٤) تشوف إلى الشيء : نظر وأشرف وتطلع إليه.
(٥) ذرف كضرب ذرفاً وذزيفاً وذروفاً وذرفاناً وتذرافاً الدمع أي سال.
(٦) أي حضنها ج حجور وحجورة وأحجار.
(٧) رقأ كفتح رقأ ورقوءاً الدمع أو الدم أي جف وانقطع.
(٨) صفة الصفوة لابن الجوزي.

صُلح الحديبيَّة

عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومروان يُصَدِّقُ كلُّ واحد منهما حديثَ صاحبه قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحُدَيْبِيَة[١] حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: إنَّ خالد[٢] بن الوليد بالغُمَيم[٣] في خيلٍ لقريشٍ طليعةٌ[٤]، فخُذوا ذاتَ اليمين. فو الله ما شعر بهم خالدٌ حتى إذا هم بقَترة[٥] الجيش، فانطلق يركض[٦] نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية[٧] التي يهبطُ[٨] عليهم منها، بركت به راحلتُه. فقال الناس:

---

(١) بتخفيف الياء الثانية وقد تشدد، موضع قريب من مكة، قرية، سميت ببئر هناك أو بشجرة وأكثرها في الحرم، وقد خرج النبي ﷺ يوم الإثنين هلال ذي القعدة سنة ست من الهجرة وهو المراد بقوله: زمن الحديبية.

(٢) القائد الإسلامي المعروف بسيف الله وكان يومئذ كافراً.

(٣) بالضم واد بديار حنظلة.

(٤) أي مقدمة الجيش.

(٥) الغبار الأسود.

(٦) ركض كنصر ركضاً الفرس برجليه أي استحثه للعدو استعجالاً حال كونه منذراً لقريش.

(٧) طريق العقبة ج ثنايا.

(٨) هبط كنصر وضرب هبوطاً فلان من الجبل أي نزل ويهبط عليهم أي على أهل مكة.

=

حلْ حَلْ[١] فألَحَّتْ[٢]، فقالوا: خَلأتِ[٣] القَصْواءُ[٤]! خلأت القَصْواء! فقال النبي ﷺ: ما خلأتِ القَصْواءُ وما ذاك لها بخُلُقٍ، ولكن حَبَسَها حابِسُ الفيل[٥].

ثم قال: والذي نفسي بيده، لا يسألوني خُطَّةً[٦] يُعظِّمونَ فيها حُرُماتِ الله إلا أعطيتُهم إيَّاها، ثم زَجَرَها[٧] فوثَبَتْ. قال: فعدلَ عنهم حتى نزلَ بأقصى الحُدَيْبيّة على ثَمدٍ[٨] قليل الماء يتبرَّضُه[٩] الناسُ تَبَرُّضاً، فلم يُلبِّثْه[١٠] الناسُ حتى نَزَحوهُ[١١]، وشُكِيَ إلى رسول الله ﷺ العطشُ، فانتزع سهماً من كِنانته ثم أمرهم أن يجعلوهُ فيه؛ فو الله ما زال يجيشُ لهم بالرِّيِّ[١٢] حتى صَدَروا[١٣] عنه. فبينما هم كذلك إذ جاء بُدَيْلُ بنُ وَرْقاءَ الخُزاعِيُّ في نَفَرٍ[١٤] من خُزاعة[١٥] وكانوا عَيبةَ[١٦] نُصْحِ رسول الله ﷺ من

---

(١) كلمة زجر للناقة.
(٢) من الإلحاح أي لزمت مكانها.
(٣) خلأ كفتح خلوءاً أي لم يبرح مكانه.
(٤) اسم ناقة رسول الله ﷺ.
(٥) أي الله تعالى، والفيل فيل أبرهة.
(٦) الخصلة أو الأمر العظيم.
(٧) زجره كنصر زجراً: طرده صائحاً به.
(٨) الحفرة يجتمع فيها ماء المطرج ثِماد.
(٩) أي يأخذونه قليلاً قليلاً.
(١٠) أي لم يتركوه يلبث ذلك الماء طويلاً.
(١١) نزح كضرب وفتح نزحاً ونزوحاً البئر أي استقى ماءها حتى قل كثيراً أو نفد.
(١٢) روى كفرح رِيًّا ورَيًّا ورِوًى من الماء: شرب وشبع.
(١٣) أي رجعوا.
(١٤) جماعة الرجال من ثلاثة إلى عشرة.
(١٥) قبيلة مشهورة.
(١٦) بالفتح: ما يوضع فيه الثياب يحفظها ج عَيب وعِياب وعِيبات، والمراد أنهم موضع النصح له والأمانة على سره.

أهل تِهامَة ، فقال : إنّي تركتْ كعبَ بن لُؤيّ وعامرَ بن لؤيّ نزلوا أعْدَادَ[١] مِياهِ الحُدَيْبيّة ومعهم العُوذ[٢] المَطافيلُ[٣] وهم مقاتِلوكَ وصادّوك عن البيتِ. فقال رسول الله ﷺ: إنا لم نَجِىء لقتالِ أحَدٍ ولكنّا جئنا مُعْتَمرين ، وإنّ قريشاً قد نَهَكَتْهُم[٤] الحَرْبُ وأضرّت بهم ، فإن شاؤوا مادَدْتُهم[٥] مدة ، ويخلّوا بيني وبين الناس فإن أظهرْ: [٦] فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخلَ فيه الناسُ فعلوا ، وإلا فقد جَمّوا[٧] ، وإن هم أبوْا فو الذي نفسي بيده لأُقاتِلنَّهم على أمري هذا حتى تنفردَ سالِفتي[٨] ، وليُنْفذنّ اللهُ أمرَهُ . فقال بُدَيْلٌ : سأُبلّغهم ما تقولُ. فانطلق حتى أتى قُريشاً قال: إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل ، وسمعناه يقول قولاً ، فإن شئتم أن نعرضَهُ عليكم فَعَلْنا. قال سُفَهاؤُهم: لا حاجةَ لنا أن تُخْبرنا عنه بشيء. وقال ذوو الرأي منهم: هاتِ ما سمعتَهُ يقول. قال سمعتُهُ يقول كذا وكذا ، فحدثهم بما قال النبي ﷺ.

فقام عروة بن مسعود فقال: أيْ قوم! ألستُ بالوالدِ؟ قالوا: بلى. قال: أو لستم بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهمونني؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أني استنفرت[٩] أهلَ عكاظ ، فلما بلّحوا[١٠] عليَّ جئتكم

---

(١) جمع عِدّ بالكسر والتشديد وهو الماء الذي لا انقطاع له.
(٢) العائذ ج عُوذ وعُوذان وجج عوذات: الحديثة النتاج من الظباء والإبل والخيل.
(٣) المطفل: ذات الطفل من الانس والوحش ج مطافل ومطافيل. أي جاؤوا بقضّهم وقضيضهم.
(٤) نهك كفتح نهكاً ونهكت الحمّى فلاناً أي أضنته وجهدته.
(٥) أي جعلت بيني وبينهم مدة يترك الحرب فيها.
(٦) أغلب وأنتصر.
(٧) أي استراحوا..
(٨) مقدم العنق ج سوالف. أراد: حتى يُفرَّق بين رأسي وجسدي (النهاية ٣/ ٣٩٠)
(٩) أي دعوتهم إلى نصركم.
(١٠) امتنعوا وعجزوا عن الإجابة.

بأهلي وولدي ومَنْ أطاعني؟ قالوا: بلى. قال: فإنَّ هذا عرضَ لكم خُطَّةَ رُشْدٍ، اقبلوها ودعوني آته. قالوا: ائته، فأتاه، فجعلَ يُكلّم النبيَّ ﷺ. فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل. فقال عروة عند ذلك: أي محمد! أرأيت ان استأصلت[١] أمر قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح[٢] أصله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإني والله لأرى وجوهاً وإني لأرى أشواباً[٣] من الناس خليقاً[٤] أن يفرّوا ويَدَعُوك. فقال له أبو بكر: أمصص[٥] بظر[٦] اللات! أنحن نفر عنه ونَدَعه؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر! فقال: أما والذي نفسي بيده! لولا يد كانت لك عندي لم أجْزِكَ بها لأجَبْتُكَ. قال: وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما كلَّمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائمٌ على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف وعليه المِغفر[٧]، فكلما أهوى[٨] عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل[٩] السيف، وقال: أخِّر يَدَكَ عن لحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه فقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة. فقال: أي غُدَرُ[١٠]! ألستُ أسعى في غَدرتك؟ وكان المغيرةُ صحب قوماً في الجاهلية فَقَتلَهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم. فقال النبي ﷺ: أما الإسلام فأقبلُ، أما المال فلستُ منه في شيء.

---

(١) استأصل الشيء أي قلعه من أصله.

(٢) أي استأصل.

(٣) أي الأخلاط من أنواع شتى.

(٤) جديراً.

(٥) مص كفرح ونصر مصّاً الشيء: رشفه، والفصيح الجيد من باب فرح.

(٦) ما بين الاسكتين من الامرأة ج بظور.

(٧) قطعة من الدرع يلبسها المحارب تحت القلنسوة ج مغافر.

(٨) مدّ يده.

(٩) هو ما يكون أسفل القراب من فضة وغيرها.

(١٠) بضم المعجمة وفتح المهملة معدول عن غادر.

ثم إن عروة جعل يرمُقُ[١] أصحاب النبي ﷺ بعينيه. قال: فو الله ما تنخّم[٢] رسول الله ﷺ نخامة[٣] إلا وقعت في كفّ رجل منهم فدلك[٤] بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وَضوئه[٥]، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يُحِدُّون[٦] إليه النظر تعظيماً له. فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أيْ قَوْمِ! واللهِ لقد وفدتُ على الملوكِ ووفدتُ على قَيْصر[٧] وكِسْرى[٨] والنَّجاشي[٩] واللهِ إن رأيتُ مَلِكاً قطُّ يُعظِّمه أصحابُهُ ما يعظِّم أصحابُ محمدٍ محمداً. والله إن تنخّم نخامة إلا وقعت في كفّ رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده. وإذا أمرهُمْ ابتدروا أمرَهُ، وإذا توضَّأ كادوا يقتتلون على وضوئه؛ وإذا تكلَّم خفضوا أصواتَهم عنده، وما يُحدُّون إليه النظرَ تعظيماً له. وإنّه قد عرض عليكم خُطَّة رُشْدٍ فاقبَلُوها.

فقال رجلٌ من بني كِنانة: دَعُوني آتِهْ، فقالوا: ائته. فلما أشرَف[١٠] على النبي ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ: هذا فلانٌ، وهو من قومٍ يُعَظِّمون البُدْن[١١]، فابعثوها له، فبُعِثت له، واستقبله الناس

---

(١) رمق كنصر رمقاً لحظ لحظاً خفيفاً.
(٢) دفع بشيء من صدره أو أنفه.
(٣) ما يدفعه الإنسان من صدره أو أنفه.
(٤) دلك كنصر دلكا طلاه وضمَّخه.
(٥) بالفتح وهو الماء الذي يتوضا به.
(٦) أحدّ إليه النظر أي بالغ في النظر إليه.
(٧) لقب ملك الروم.
(٨) لقب ملك الفرس.
(٩) لقب ملك الحبشة.
(١٠) اطلع عليه.
(١١) جمع بدنة أي الناقة أو البقرة.

يُلَبُّون[١]. فلما رأى ذلك قال: سبحانَ اللهِ! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيتِ. فلمّا رجعَ إلى أصحابه قال: رأيتُ البُدْنَ قد قُلِّدَتْ[٢] وأُشعِرَتْ[٣]، فما أرى أن يُصدّوا عن البيتِ.

فقام رجل منهم يقال له مِكْرَزُ بنُ حَفْصٍ، فقال: دعوني آتِهِ، فقالوا ائْتِهِ. فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: هذا مِكْرَز، وهو رجل فاجرٌ، فجعل يكلّم النبي ﷺ.

فبينما هو يكلّمه إذ جاء سُهَيْل بن عمرو. قال معمر: فأخبرني أيوب عن عكرمة أنه لمّا جاء سُهَيل قال النبي ﷺ: قد سَهُلَ لكم من أمركم. قال معمر قال الزهري في حديثه فجاءسُهيل بن عمرو فقال: هات اكتُبْ بيننا وبينكم كتاباً. فدعا النبي ﷺ الكاتبَ[٤]، فقال النبي ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سُهَيْل: أما الرحمنُ فو اللهِ ما أدري ما هو؟ ولكن اكتب: باسمك اللهم، كما كنتَ تكتبُ. فقال المسلمون: والله! لا نكتبُها إلا بسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبي ﷺ: اكتب باسمك اللهمّ. ثم قال: هذا ما قاضى[٥] عليه محمَّدٌ رسولُ الله. فقال سُهَيْلٌ: والله لو كُنّا نعلمُ أنك رسولُ الله ما صددناكَ عن البيت، ولا قاتلناك؛ ولكن اكتُبْ: محمد بن عبد الله. فقال النبي ﷺ: والله إنّي لرسولُ الله وإن كذَّبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله. قال الزهري: وذلك لقوله لا يسألوني خُطّة يعظّمون فيها حرماتِ الله إلا أعطيتهم إياها. فقال له النبي ﷺ: على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به. فقال سهيل. والله!

(١) أي يقولون: لبيك لبيك.
(٢) التقليد أن يعلق في عنق الدابة شيء ليعلم أنها هدي.
(٣) الإشعار: الطعن في سنام الهدى بحيث يسيل منه الدم ليكون علامة أنه هدي.
(٤) هو علي (كرم الله وجهه).
(٥) صالح.

لا تتحدثُ العربُ أنا أُخِذنا ضُغْطَةً[١] ولكن ذلك من العام المقبل فكتب. فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجلٌ وإن كان على دينك إلا رَدَدْتَهُ إلينا. قال المسلمون: سبحانَ اللهِ! كيف يُردُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً.

فبينا هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سُهَيْل بن عمرو يَرْسُفُ[٢] في قيوده وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهُرِ المسلمين، فقال سُهيلُ: هذا أول ما أقاضيك عليه أن تردَّه إليَّ. فقال النبي ﷺ: إنا لم نَقْضِ الكتاب بعدُ. قال: فو الله إذن لا أصالحك على شيء أبداً. فقال النبي ﷺ: فأجِزْهُ[٣] لي. فقال: ما أنا بمجيز ذلك. قال بلى! فافعل. قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بل قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أي معشر المسلمين! أُردّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً! ألا ترون ما قد لقيت! وكان قد عُذِّب عذاباً شديداً في الله.

قال عمر بن الخطاب: فأتيتُ نبيَّ الله ﷺ فقلتُ: ألستَ نبيَّ الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى! قلت فلم نُعطي الدَّنيَّـةَ[٤] في ديننا إذن؟ قال: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري. قلت: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيتَ فنطوف به؟ قال: بلى! فأخبرتك أنا نأتيه العامَ؟ قلت: لا. قال: فإنك آتية ومطوّف به. قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر! أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى! قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى! قلت: فلم نُعطى الدنيّة في ديننا إذن؟ قال: أيها الرجل! إنه رسول الله وليس يَعصي ربه وهو

(١) الزحمة والضيق، يقال: أخذت فلاناً ضغطة إذا ضيقت عليه لتكرهه على الشيء وتلجئه إليه.

(٢) رسف كنصر وضرب رسفاً ورسيفاً ورسفاناً مشى مشية المقيد.

(٣) أي امض لي فعلي فيه فلا أرده إليك أو استثنه من القضية.

(٤) النقيصة.

ناصره ، فاستمسك بغَرزه[١] فو الله إنه على الحق. قلت: أليس كان يُحدّثُنا أنّا سنأتي البيت ونطوفُ به؟ قال: بلى! أفأخْبَرَكَ أنَّكَ تأتيه العامَ؟ قلت: لا ، قال: فإنكَ آتيهِ ومُطوِّفٌ به.

قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً[٢].

قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا. قال: فو الله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحدٌ دخلَ على أمِّ سلمة ، فذكر لها ما لقي من الناس. فقالتْ أمُّ سَلَمة: يا نَبِيَّ الله! أتُحبُّ ذاك؟ اخرُجْ ثم لا تكلِّمْ أحداً منهم كَلِمةً حتى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وتدعو حالقَكَ فيحلِقَكَ. فخرج فلم يُكَلِّمْ أحداً منهم حتى فعل ذلك ، نحر بُدْنَهُ ودعا حالِقَهُ فحَلَقَهُ. فلما رأوا ذلك قاموا فنَحروا وجعل بعضُهم يحلقُ بعضاً حتى كاد بعضهم يقتُلُ بعضاً غمّاً. ثم جاءه نِسْوةٌ مؤمناتٌ فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ ﴾ ـ حتى بلغ ـ ﴿ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾[٣] [الممتحنة: ١٠]. فطلق عمر يومئذٍ امرأتين كانتا له في الشرك فتزوَّج إحداهما معاويةِ بن أبي سفيان ، والأخرى صفوان بن أُميّة.

ثم رجعَ النبيُّ ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بَصيرٍ رجلٌ من قريشٍ وهو مسلمٌ فأرسلوا في طلبه رجلين ، فقالوا: العهد الذي جعلتَ لنا ، فدفعه إلى الرجلين ، فخرجا به حتى بلغا ذا الحُلَيفَةِ[٤] فنزلوا يأكلون من عُدتهم[٥]. فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفَكَ هذا

---

(١) ركاب الرجل من جلد ج غروز واستمسك بغرزه أي صاحبه ولا تخالفه.
(٢) أي عملت لذلك التوقف في الامتثال الذي فرط مني أعمالاً صالحة لتكفر عني.
(٣) جمع عصمة أي بما يعتصم به الكافرات من عقد وسبب.
(٤) قرية بينها وبين مكة ستة أميال أو سبعة ومنها ميقات أهل المدينة.
(٥) ما أعددته لحوادث الدهر من مال وسلاح ج عُدد.

يا فلانُ جيداً ، فاستلَّه[١] الآخرُ. فقال: أجل ، واللهِ إنه لجيّدٌ لقد جرّبْتُ به ثم جَرَّبْتُ. فقال أبو بصير: أرني أَنْظُرْ إليه! فأمكنه منه فضربه حتى برد ، وفرَّ الآخر حتى أتى المدينة ، فدخل المسجد يعدو. فقال رسول الله ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذُعراً[٢]. فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قُتِلَ والله صاحبي وإني لمقتول. فجاء أبو بَصير فقال: يا نبيَّ اللهِ! قد والله أوفى[٣] الله ذمتك ، قد رَدَدْتَني إليهم ثم أنجاني الله منهم. قال النبي ﷺ: ويل امّهِ مِسْعَرَ[٤] حربٍ لو كان له أحد[٥] فلما سمع ذلك عرف أنه سيردّه إليهم فخرج حتى أتى سِيفَ[٦] البحر. قال: وينفلتُ[٧] منهم أبو جندل بن سُهيل ، فلحق بأبي بَصير ، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير ، حتى اجتمعتْ منهم عِصابةٌ[٨]. فواللهِ! ما يسمعون بعيرٍ[٩] خرجَتْ لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها ، فقتلوهم وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريشٌ إلى النبي ﷺ تناشده[١٠] الله والرَّحِم: لما أرسل فمن أتاه فهو آمن. فأرسل النبي ﷺ إليهم فأنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم - حتى بلغ - حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح/ ٢٤].
وكانت حميتهم أنهم لم يُقروا أنه نبيُّ الله ولم يُقرُّوا ببسم الله الرحمن الرحيم وحالوا بينهم وبين البيت.

---

(١) سَلّ كنصر سلاً واستلّ الشيء من الشيء انتزعه وأخرجه برفق.
(٢) خوفاً.
(٣) أتمّ.
(٤) بالكسر موقد النار يقال هو مسعر حرب أي مثيرها ومحركها.
(٥) أي لو قدر له أحد أن ينصره.
(٦) بكسر السين أي الساحل.
(٧) يتخلّص.
(٨) الجماعة من الرجال أو الخيل أو الطير ج عصائب.
(٩) القافلة.
(١٠) ناشده حلّفه. ناشده الأمر وفي الأمر أي طلبه إليه.

وقال عقيل عن الزهري: قال عُروة: فأخبرتني عائشة أن رسول الله ﷺ كان يمتحنهن وبلغنا أنه لما أنزل الله أن يردوا إلى المشركين ما أنفقوا على مَنْ هاجر من أزواجهم وحكم على المسلمين أن لا يُمسكوا بِعِصَمِ الكوافر أن عمر طلق امرأتين قُرَيبة بنت أبي أُميّة وبنت جرول الخزاعي. فتزوج قُريبة معاوية وتزوج الأخرى أبو جهم، فلما أبىٰ الكفار أن يُقرُّوا بأداء ما أنفق المسلمون على أزواجهم أنزل الله: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ [الممتحنة: ١١] - والعَقْب ما يؤدي المسلمون إلى مَنْ هاجرت امرأته من الكفَّار - فأمر أن يعطى من ذهب له زوج من المسلمين ما أنفق من صداق[١] نساء الكفار اللاتي هاجرن، وما نعلم أن أحَداً من المهاجرات ارتدّت بعد إيمانها وبلغنا أن أبا بصير بن أسيد الثقفي قدم على النبي ﷺ مؤمناً مهاجراً في المدة فكتب الأخنس بن شَريق إلى النبي ﷺ يسأله أبا بصير - فذكر الحديث -[٢].

* * *

(١) المهر، ج أصْدِقَة وصُدُق.

(٢) الجامع الصحيح للبخاري باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب.

عَلى وَفـاة الرسُول ﷺ

دخل أبو بكر الصديق[١] رضي الله عنه على النبي ﷺ وهو مسجّى[٢] بثوب فكشف عنه الثوب وقال:

بأبي أنت وأمي! طبت حيّا ، وطبت ميتاً ، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء من النبوة ، فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء ، وخصصت حتى صرت مسلاة[٣] ، وعممت حتى صرنا فيك سواء[٤] ، ولولا أن موتك كان اختياراً[٥] منك لجدنا لموتك بالنفوس ،

---

(١) هو أمير المؤمنين أبو بكر الصديق (رضي الله تعالى عنه) السابق إلى الإسلام وثاني اثنين إذ هما في الغار وخليل سيدنا رسول الله ﷺ وولي الإسلام بعد النبي ﷺ كما يدل عليه قوله «أينقص الدين وأنا حي» وكافل المسلمين اليتامى بعد وفاة الرسول ﷺ توفي سنة ١٣هـ وكلامه من خطب ورسائل ووصايا مرآة لسيرته وخلقه، صدق مع عزيمة ورفق في غير ضعف.

(٢) سجّى الميت أي مد عليه ثوباً.

(٣) ما يبعث على السلو، والمعنى أنك يارسول الله قد صرت بموتك مسلاة للناس فإنك ما اختصصت به من مناقب النبوة وقد نزل بك الموت فللعباد فيك أسوة حسنة.

(٤) أي عمت المصيبة لفقدك جميع المسلمين فصرنا نحن وقرابتك سواء في الحزن عليك والتفجع لك.

(٥) يشير إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير» قالت عائشة (رضي الله عنها) فسمعته وقد شخص بصره وهو يقول: «في الرفيق الأعلى» فعلمت أنه خير فعلمت أنه لا يختارنا إذن وقلت هو الذي كان يحدثنا وهو صحيح.

ولولا أنك نهيتَ عن البكاء لأنفدنا[١] عليك ماء الشؤون[٢]. فأما ما لا نستطيع نفيه عنا فكمد[٣] وإدناف[٤] يتخالفان[٥] ولا يبرحان، اللهم فابلغه عنا السلام، اذكرنا يا محمد عند ربك، ولنكن من بالك، فلولا ما خلفت من السكينة لم نقم لما خلفت من الوحشة، اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا.

ثم خرج إلى الناس وهم في شديد غمراتهم[٦] وعظيم سكراتهم[٧]، فخطب خطبة قال فيها:

أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وأشهد أن الكتاب كما نزل، وأن الدين كما شرع، وأن الحديث كما حدَّث، وأن القول كما قال، وأن الله هو الحق المبين ـ في كلام طويل ثم قال:

أيها الناس! من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات. ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وأن الله قد تقدم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعاً، وأن الله قد اختار لنبيّه ما عنده على ما عندكم وقبضه إلى ثوابه. وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر.

---

(١) أفنينا.
(٢) جمع شأن وهو مجرى الدمع من العين.
(٣) الحزن والغم الشديد.
(٤) دنف المريض كفرح وأدنف ثقل مرضه ودنا من الموت ودنفت الشمس وأدنفت أي دنت للغروب واصفرت.
(٥) أي يجيئان مرة بعد أخرى.
(٦) غمرة الشيء شدته ومزدحمه ج غَمَرات وغِمَار وغُمَر وغمرات الموت مكارهه وشدائده.
(٧) جمع سكرة وسكرة الموت أو الهم شدته وغشيته.

يا أيها الذين آمنوا! كونوا قوامين بالقسط[١] ولا يشغلنّكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم[٢] عن دينكم فعاجلوه بالذي تعجزونه ولا تستنظروه[٣] فيلحق بكم[٤].

❊ ❊ ❊

(١) العدل.
(٢) لا يوقعكم في الفتنة.
(٣) لا تستمهلوه.
(٤) زهر الآداب.

شقــاوة المــلوك

خطب أبو بكر (رضي الله عنه) فقال:

إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوكُ. فرفع الناس رؤوسهم فقال: ما لكم يا معشر الناس! إنكم لطعّانون عَجِلون. إنّ من الملوك مَنْ إذا ملكَ زهَّدَه اللهُ فيما في يده، ورغَّبه فيما في يَدَي غيره، وانتقصه[١] شَطْرَ[٢] أجله، وأشربَ قلبه الإشفاق[٣] فهو يَحْسُدُ على القليل، ويَتَسخَّطُ[٤] الكثير، ويسأمُ الرَّخاء[٥]، وتنقطعُ عنه لذة البهاء، لا يستعمل العِبْرة، ولا يسكنُ إلى الثقة، فهو كالدرهم القَسيِّ[٦] والسراب الخادع، جَذِلُ[٧] الظّاهر، حزينُ الباطن، فإذا وجبت[٨] نفسُه ونضَبَ[٩] عُمرُه وضحا ظِلُّه[١٠] حاسبه الله فأشدَّ حسابَهُ وأقلَّ عفوه، ألا إنَّ الفقراءَ هم المرحومون. وخير الملوك من آمن بالله وحكم بكتاب الله

---

(١) نقصه.
(٢) الجزء.
(٣) الخوف.
(٤) تَسخَّطَ عطاءَهُ استقلَّه ولم يقع منه موقعاً حسناً.
(٥) بالفتح سعة العيش وبالضم الريح اللينة التي لا تحرك شيئاً.
(٦) الزائف.
(٧) الفرِح ج جُذلان.
(٨) أي مات ووجبت الشمس أي غابت والعين غارت.
(٩) نفد وانقضى.
(١٠) مات.

وسُنَّةِ نبيّه ﷺ ، وإنكم اليوم على خلافة نبوّة ومَفْرِقٍ[١] مَحَجَّةٍ[٢] ، وسَتَرَوْنَ بعدي مُلْكاً عضوضاً[٣] ، وأمّه شَعاعاً[٤] ، ودماً مُفاحاً[٥] ، فإن كانت للباطل نزوةٌ[٦] ولأهل الحق جَوْلة[٧] يعفو[٨] لها الأثر ، وتموت السُّنَن ، فالزموا المساجد ، واستشيروا القرآنَ ، والزموا الجماعة ، وليكن الإبرامُ[٩] بعد التشاور ، والصفقة[١٠] بعد طول التناظر ، أيُّ بلاد خرشنة (١١) إن الله سيفتح عليكم أقصاها كما فتح أدناها[١٢] .

* * *

(١) الموضع الذي ينشعب فيه من الطريق طريق آخر.
(٢) جادّة الطريق أي وسطه ج محاج.
(٣) الكثير العضّ وملك عضوض فيه عسف وظلم.
(٤) المتفرق من كل شيء.
(٥) المهراق أفاحه أي أراقه.
(٦) الوثبة.
(٧) جال القوم جولة أي انكشفوا ثم كروا..
(٨) عفا يعفو عفواً وعفاء وعفوا الأثر أو المنزل امحى ودرس وبلي.
(٩) الإحكام.
(١٠) ضرب اليد على اليد في البيع وأيضاً عقد البيع.
(١١) بلدٌ قرب مَلطية من بلاد الروم والمراد بها بلاد الروم.
(١٢) جمهرة خطب العرب والبيان والتبيين وعيون الأخبار.

خطَّـة عُمَر فـي الحكم

قال طلحة بن معدان: خطبنا عمر[١] بن الخطاب (رضي الله عنه) فقال: أيُّها الناس! إنه لم يبلغ ذو حق في حقه أن يطاع في معصية الله ، وإني لا أجد هذا المال يصلحه إلا خلال[٢] ثلاث ، أن يؤخذ بالحق ، ويعطى في الحق ، ويمنع من الباطل؛ وإنما أنا ومالكم كولي اليتيم ، إن استغنيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف ، ولست أدع أحداً يظلم أحداً ويعتدي عليه. حتى أضع خده على الأرض وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن[٣] للحق.

ولكم عليَّ أيها الناس! خصال أذكرها لكم فخذوني بها: لكم عليَّ أن لا أجتبي شيئاً من خراجكم ولا ممّا أفاء[٤] الله عليكم إلا من وجهه ، ولكم عليَّ إذا وقع في يدي أن لا يخرج مني إلا في حقه ، ولكم عليَّ أن أزيد أعطياتكم وأرزاقكم ـ إن شاء الله ـ وأسد ثغوركم[٥]. ولكم عليَّ أن

---

(١) أمير المؤمنين عمر (رضي الله عنه) معجزة من معجزات الرسول ﷺ، ومن بدائع العالم في رجاحه العقل، وحصافة الرأي، وحسن السياسة إلى العبقرية، والعصامية إلى الدين والتقوى والمثل الكامل للحكم العادل، والجمع بين الدين والدنيا كان من فتوحه العلم والفقه، ومن جنوده الخطابة والبلاغة. توفي مستشهداً سنة ٢٣ هـ.

(٢) جمع خلة بالفتح أي الخصلة.

(٣) ينقاد ويقر.

(٤) أفاء الله عليه مال القوم أي جعله فيئاً له.

(٥) جمع ثَغْر المكان الذي يخاف منه هجوم العدو.

لا ألقيكم في المهالك ولا أجمّركم[١] في ثغوركم.

وقد اقترب منكم زمان قليل الأمناء كثير القراء، قليل الفقهاء كثير الأمل، يعمل فيه أقوام للآخرة يطلبون به دنيا عريضة تأكل دين صاحبها كما تأكل النار الحطب، ألا كل من أدرك ذلك منكم فليتق الله ربه وليصبر.

يا أيها الناس! إن الله عظم حقه فوق حق خلقه، فقال فيما عظم من حقه: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٠] ألا وإني لم أبعثكم أمراء ولا جبّارين، ولكن بعثتكم أئمة الهدى يهتدى بكم فأدِرُّوا[٢] على المسلمين حقوقهم، ولا تضربوهم فتذلّوهم، ولا تحمدوهم فتفتنوهم، ولا تغلقوا الأبواب دونهم فيأكل قويّهم ضعيفهم، ولا تستأثروا[٣] عليهم فتظلموهم، ولا تجهلوا عليهم؛ وقاتلوا بهم الكفار طاقتهم فإذا رأيتم بها كلالة[٤] فكفوا عن ذلك فإن ذلك أبلغ في جهاد عدوكم. أيها الناس! إني أشهدكم على أمراء الأمصار أني لم أبعثهم إلا ليفقهوا الناس في دينهم ويقسموا عليهم فيئهم ويحكموا بينهم، فإن أشكل[٥] عليهم شيء رفعوه إليّ.

* * *

---

(١) جمّر القوم على أمر جمعهم.

(٢) أجرَوا.

(٣) استأثر بالشيء على الغير أي استبد به وخصّ به نفسه.

(٤) الضعف والإعياء.

(٥) التبس.

منشُورُ القضاء

«بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس. سلام عليك! أما بعد! فإن القضاء فريضةٌ محكمةٌ وسُنَّةٌ مُتَّبعةٌ، فافهم إذا أُدْلي[١] إليك فإنه لا ينفع تكلُّمٌ بحقٍ لا نفاذَ[٢] له. آسِ[٣] بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف في حَيْفك[٤] ولا يخافَ ضعيفٌ من جَوْركَ البيّنةُ على من ادَّعى واليمينُ على من أنكر، والصُّلْحُ جائزٌ بين المسلمين إلا صلحاً حرّم حلالاً أو أحلّ حراماً. ولا يمنعنَّك قضاءٌ قضيتَهُ اليوم فراجعت فيه نفسك، وهُديتَ فيه لرُشْدكَ، أن ترجعَ عنه فإن الحق قديمٌ ومراجعةُ الحقِّ خيرٌ من التَّمادي[٥] في الباطل، الفهمَ، الفهمَ عندما يتلجلج[٦] في صدرك مما ليس يبلغْكَ في كتاب الله ولا سنة النبي ﷺ! اعرفِ الأمثالَ والأشباهَ، وقِسِ الأمورَ عند ذلك ثم اعمد إلى أحبِّها إلى الله وأشبهها بالحقّ فيما ترى، واجعل للمدعي حقاً غائباً أو بيّنةً، أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينته أخذتَ له

---

(١) أدلي إلى فلان أي تخوصم إليه.

(٢) الإجراء.

(٣) سوّ.

(٤) جورك وظلمك.

(٥) تمادى في غيه أي دام على فعله ولج.

(٦) يتردد.

بحقه ، وإلاّ وجهتَ عليه القضاء فإنه أنفى للشّكّ ، وأجلى[١] للعمى ، وأبلغ في العذر. المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً[٢] في حدٍّ ، أو مجرّباً عليه شهادةُ زورٍ ، أو ظنيناً[٣] في ولاء أو قرابة ، فإنّ الله قد تولّى منكم السرائر[٤] ودرأ[٥] عنكم بالشبهات. وإياك والقلقَ والضَّجَر[٦] ، والتأذِّيَ بالناس ، والتَّنكرَ[٧] للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويُحسِنُ بها الذُّخر ، فإنه مَنْ يُخْلِصْ نيّته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ، ولو على نفسه ، يَكْفِهِ الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزيَّنَ للناس بما يعلم اللهُ خلافه هتكَ[٨] الله ستره وأبدى فعله ، والسلام عليك»[٩].

* * *

---

(١) اكشف.

(٢) مضروباً.

(٣) متهماً.

(٤) جمع سريرة أي السر الذي يكتم.

(٥) دفع بابه فتح.

(٦) السآمة والملل بابه سمع.

(٧) تنكر لفلان أي صار غريباً عنده.

(٨) خرق بابه ضرب.

(٩) البيان والتبيين.

الأصحـابُ الحَـاضِرُونَ

تحدث ابن عائشة في إسناد ذكره أن عليّـاً[١] (رضي الله عنه) انتهى إليه أن خيلاً[٢] لمعاوية وردت الأنبار[٣] فقتلوا عاملاً له يقال له حسَّان بن حسَّان ، فخرج مُـغْضَباً يجـرُّ ثوبَـهُ حتى أتى النُّـخَيْلة[٤] واتَّبعَـه الناس فَرقي[٥] رَبَـاوةً[٦] من الأرض ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ ، ثم قال :

أما بعد! فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله الذل، وسيما الخَسْف[٧] ودُيِّث[٨] بالصغار[٩] وقد دعوتكم إلى حرب

---

(١) أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه ورضي الله عنه) حكيم الإسلام وخطيبه وفارسه، ووارث رسول الله ﷺ في الأدب والبلاغة والعلم بلا خلاف، وإمامته في ذلك لم تنازع قط.
أخطب المسلمين وإمام المنشئين وأحد أصحاب الأساليب والمذاهب في الإنشاء، وآثاره الأدبية من خطب وكتب وحكم ـ ما صح منها ـ جمال اللغة العربية وبدائع النثر العربي وموضوع دراسة الأديب والباحث. توفي شهيداً سنة ٤٠هـ.

(٢) جماعة الأفراس ج خيول وأخيال وتستعمل على المجاز للفرسان وركّاب الخيل يقال: «أتى بخيله ورَجلِهِ» أي بفرسانه ومشاته.

(٣) مدينة على الفرات في غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ.

(٤) مصغراً موضع بالبادية.

(٥) رقي كفرح رَقْياً ورُقياً الجبل وفيه وإليه صعد.

(٦) بالتثليث الرابية وهي ما ارتفع من الأرض.

(٧) النقيصة والذل.

(٨) ديثه أي ذلله.

(٩) الذل والضيم.

هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، سراً وإعلاناً، وقلت لكم: اغزوهم من قبل أن يغزوكم، فو الذي نفسي بيده! ما غُزِيَ قومٌ قطُّ في عُقْر[١] دارهم إلا ذَلّوا فتخاذلتم[٢] وتواكلتم[٣] وثَقُلَ عليكم قولي، واتّخذتموه وراءكم ظِهْرِيًّا[٤] حتى شُنَّتِ[٥] عليكم الغارات. وهذا أخو غامدٍ[٦] قد وَرَدَتْ خَيْلُه الأنبار وقَتلوا حسّان بن حسّان، ورجالاً منهم كثيراً ونساء. والذي نفسي بيده! لقد بلغني أنه كان يُدْخَلُ على المرأة المسلمة والمعاهَدة فتُنْتَزع أحجالهما[٧] ورُعثُهما[٨] ثم انصرفوا مَوْفورين[٩] لم يُكْلَم[١٠] أحدٌ منهم كَلْماً، فلو أن امرأً مسلماً مات من دون هذا أسفاً ما كان عندي فيه ملوماً، بل كان به عندي جَديراً. يا عجباً كلَّ العجب! عجبٌ يميتُ القلبَ ويَشْغلُ الفهمَ، ويكثر الأحزان من تظافر[١١] هؤلاء القوم على باطلهم، وفشلكم[١٢] عن حقكم، حتى أصبحتم غرضاً[١٣] تُرمَوْن ولا تَرْمُون، ويُغار عليكم ولا تُغيرون ويُعْصى اللهُ فيكم وتَرْضَوْن، إذا قلت لكم:

---

(١) وسط الدار.
(٢) ترك بعضكم بعضاً.
(٣) اتكل بعضكم على بعض.
(٤) ما تجعله وراء ظهرك وتنساه ج ظهاري.
(٥) شنّ الغارة عليهم وجهها عليهم من كل جهة.
(٦) هو سفيان بن عوف من بني غامد قبيلة من اليمين من أزد شنوءة، بعثه معاوية لشن الغارات على أطراف العراق تهويلاً على أهله.
(٧) جمع حجل الخلخال.
(٨) الرعثة بالفتح وبفتحتين القرط ج رعاث جج رُعُث.
(٩) السالمين والمتكثرين.
(١٠) لم يجرح.
(١١) الاجتماع والتعاون.
(١٢) الضعف والجبن عند حرب أو شدة.
(١٣) الهدف ج أغراض.

اغزوهم في الشتاء قلتم: هذا أوان[١] قُرّ[٢] وصِرّ[٣] ، وإن قلت لكم: اغزوهم في الصيف قلتم: هذه حَمارَّةُ[٤] القيظ[٥] ، أنْظِرنا[٦] يَنْصَرِم[٧] الحرّ عنا. فإذا كنتم من الحرّ والبرد تفرون ، فأنتم والله من السيف أَفَرُّ ، يا أشباه الرجال ولا رجال ويا طغام الأحلام ، ويا عقول ربّاتِ الحجال[٨]! والله! لقد أفسدتم عليّ رأيي بالعصيان ، ولقد ملأتم جوفي غيظاً حتى قالت قريش: ابن أبي طالب رجل شجاع ، ولكن لا رأي له في الحرب. لله درُّهم! ومن ذا يكون أعلم بها مني أو أشد لها مراساً[٩] ، فو الله! لقد نهضت[١٠] فيها وما بلغت العشرين ، ولقد نيّفتُ[١١] اليوم على الستين ، ولكن لا رأيَ لمن لا يُطاع ـ يقولها ثلاثاً ـ[١٢].

* * *

(١) الوقت.
(٢) شدة البرد.
(٣) شدة البرد.
(٤) شدة الحر، ج حمارّ.
(٥) صميم الصيف ج أقياظ وقيوظ.
(٦) أمهلنا.
(٧) ينقطع.
(٨) جمع حجلة أي ستر يضرب للعروس في جوف البيت.
(٩) مارس الأمر مراساً وممارسة عالجه وزاوله وعاناه وشرع فيه.
(١٠) قمت.
(١١) نيّف أي زاد.
(١٢) الكامل للمبردّ، البيان والتبيين، نهج البلاغة؛ واللفظ للكامل ـ

الإخـوانُ الـذاهبـونَ

ومن خطب علي (كرم الله وجهه) ـ وقد قام إليه رجل من أصحابه ـ فقال: نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فلم ندر أي الأمرين أرشد ، فصفّق[١] عليه السلام إحدى يديه على الأخرى ثم قال:

هذا جزاء من ترك العقدة[٢] ، أما والله لو أني حين أمرتكم بما أمرتكم به حملتكم على المكروه الذي يجعل الله فيه خيراً ، فإن استقمتم هديتكم ، وإن اعوججتم قوّمتكم. وإن أبيتم تداركتكم[٣]. لكانت الوثقى. ولكن بمن وإلى من؟ أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي كناقش[٤] الشوكة[٥] بالشوكة وهو يعلم أن ضلعها[٦] معها. اللهُمَّ قد ملّت[٧] أطباء هذا الداء الدويّ[٨] وكَلَّت[٩] النزعة[١٠] بأشطان[١١] الرّكيّ[١٢] ، أين القوم الذين دُعوا إلى الإسلام فقبلوه ، وقرؤوا القرآن فأحكموه.

---

(١) التصفيق ضرب بباطن الراحة على باطن الأخرى.
(٢) البيعة المعقودة للولاة.
(٣) أصلحت شأنكم.
(٤) المستخرج.
(٥) ما يخرج من النبات شبيهاً بالإبر.
(٦) الميل والعوج.
(٧) ملّ كفرح مللا وملالاً وملّة وملالة الشيء ومن الشيء سئمه وضجر منه.
(٨) المريض.
(٩) كل كضرب كَلاّ وكلّة وكلالاً وكلولاً وكلالة وكُلولة تعب وأعيا.
(١٠) جمع النازع نزع الدلو وبالدلو جذبها واستقى بها.
(١١) جمع شطن وهو الحبل.
(١٢) جمع ركيّة وهي البئر ذات الماء ج ركايا وركيّ.

وهيجوا[١] إلى القتال فولهوا[٢] وله اللقاح[٣] إلى أولادها. وسلوا[٤] السيوف أغمادها. وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً وصفًّا صفًّا: بعض هلك، وبعض نجا. لا يُبَشَّرُونَ بالأحياء، ولا يعزون بالموتى، مُره[٥] العيون من البكاء خمص[٦] البطون من الصيام، ذُبّل[٧] الشفاه[٨] من الدعاء. صفر الألوان من السهر، على وجوههم غبرة[٩] الخاشعين.

أولئك إخواني الذاهبون! فحق لنا أن نظمأ[١٠] إليهم ونعضّ[١١] الأيدي على فراقهم[١٢].

* * *

(١) التهييج الإثارة والبعث.
(٢) وله كضرب وسمع ولَهًا حزن شديداً حتى كاد يذهب عقله، تحير من شدة الوجد.
(٣) جمع اللقوح الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.
(٤) سلّ كنصر سلاً الشيء من الشيء انتزعه وأخرجه برفق.
(٥) مرهت كفرح مرحاً عينه فسدت وابيضت بواطن أجفانه لترك الكحل فهو مره وأمره.
(٦) خمص كنصر وفرح وكرم خمصاً وخموصاً ومخمصة البطن فرغ وضمر.
(٧) جمع ذابل ذبل كنصر وكرم ذبولا وذبلا لسانه أو شفته جفّ.
(٨) جمع شفة ما يطبق على فمه ويستر أسنانه.
(٩) لون الغبار.
(١٠) ظمىء كفرح ظماً وظمَاً وظماءً وظماءَة إليه اشتاق.
(١١) عضّه كفرح عضّاً وعضيضاً أمسكه بأسنانه.
(١٢) نهج البلاغة.

خطبة زياد بن أبيه[1]

أما بعد! فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغيّ الموفي بأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم[2]، من الأمور العظام، ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى[3]، عنها الكبير. كأنكم لم تقرؤوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعدّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، في الزمن السرمدي الذي لا يزول. أتكونون كمن طرفت[4] عينيه الدنيا، وسدت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية؟ ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه: مِنْ ترككم الضعيف يقهر، والضعيفة[5] المسلوبة بالنهار لا تنصر، والعدد غير قليل، والجمع غير

(١) من نوابغ العرب ودواهيها ومن أخطب الخطباء وأشهر السياسيين والإداريين في العصر الإسلامي الأموي، خطب يوماً بين يدي عمر في حضرة المهاجرين والأنصار خطبة لم يسمعوا مثلها واستعان بعقله وكفايته عمر وعلي بعده ومعاوية بعدهما فكان فوق المنتظر وهو من أقوى العمد التي قام عليها عرش بني أمية كانت وفاته سنة ٥٣هـ.

(٢) أي عقلاؤكم.

(٣) لا يحترز ولا يجتنب.

(٤) طرف كضرب طرفاً عينه أي أصابها بشيء فدمعت.

(٥) كانت المرأة من أهل البلد يأخذها الفتيان الفساق ويقولون لها نادي ثلاثة أصوات فإن أجابك أحد وإلا فلا لوم علينا فيما نصنع فبلغ ذلك زياداً فغضب وأمهلهم شهراً ثم دعا عبد الله بن حصين اليربوعي صاحب شرطه وأمره أن يأتي برأس كل من لقيه خارج منزله بعد العشاء الأخيرة ولو كان ابنه فجاءه في أول ليلة بسبع مئة رأس وفي الثانية بخمسين رأساً وفي الثالثة برأس واحد وكف الفساق عن =

مفترق. ألم يكن منكم نهاة[١] يمنعون الغواة[٢] عن دلج[٣] الليل وغارة النهار؟ قرّبتم القرابة، وباعدتم الدين. تعتذرون بغير العذر، وتغضون على النكر، كل امرئ منكم يردُّ عن سفيهه، صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً. ما أنتم بالحلماء، ولقد اتبعتم السفهاء، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام، ثم أطرقوا[٤] وراءكم كنوساً[٥] في مكانس[٦] الريب. حرام عليّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً. إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله: لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف[٧]. وإني لأقسم بالله لآخذَنَّ الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمطيع بالعاصي، والصحيح بالسقيم، حتى يلقى الرجل أخاه فيقول: انجُ سعدٌ فقد هلك سُعَيد[٨]! أو تستقيم[٩] قناتكم. إن كذبة الأمير بلْقاء[١٠] مشهورة، فإذا

= المعاصي.

(١) جمع ناه بمعنى المانع.

(٢) جمع غاو أي الضال والمنقاد للهوى.

(٣) السير في الليل.

(٤) يقال أطرق الصيد أي نصب له حباله.

(٥) جمع كانس وهو الظبي يدخل في كناسه وهو بيته وجمعه أيضاً كُنّس وكوانس والمراد بها النساء.

(٦) المخابي ومحال المنكر.

(٧) مثلثة مع سكون النون ضد الرفق الشدة والقساوة.

(٨) بالضم مصغراً، هذا مثل سائر؛ وأصله أنه كان لضبّة بن أُدّ ابنان سعد وسُعيد فخرجا يطلبان إبلاً لهما فرجع سعد ولم يرجع سعيد فكان ضبة إذا رأى سواداً تحت الليل قال: سعد أم سعيد؟ هذا أصل المثل فأخذ ذلك اللفظ منه وصار مما يتشاءم به وهو يضرب مثلاً في العناية بذي الرحم ويضرب في الاستخبار بين الأمرين الخير والشر أيهما وقع.

(٩) كناية عن الصلاح يقال استقامت قناته أي صلح.

(١٠) من كان في لونها سواد وبياض يعني إن كذب الأمير افتضح بكذبه واشتهر عنه فإن البلق يمتاز عن سائر الجسد فإذا ثبت لكم أني كذبت فلا طاعة لي عليكم. =

تعلقتم عليّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتي. فإذا سمعتموها مني فاغتمزوها[١] فيّ. واعلموا أن عندي أمثالها من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله، فأياي ودلج الليل، فإني لا أوتي بمدلج[٢] إلا سفكت دمه، وقد أجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم. وإيّاي ودعوى الجاهلية، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه. وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة فمن أغرق قوماً أغرقناه، ومن أحرق قوماً أحرقناه، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه، ومن نبش[٣] قبراً دفناه فيه حيًّا، فكُفّوا عني أيديكم وألسنتكم أكف عنكم يدي ولساني، ولا تظهر من أحدكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه، وقد كان بيني وبين قوم إحَنٌ[٤]، فجعلت ذلك دبر أذني[٥] وتحت قدمي. إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السلّ[٦] من بغضي لم أكشف له قناعاً. ولم أهتك له ستراً، حتى يبدي لي صفحته، فإذا فعل ذلك لم أناظره. فاستأنفوا أموركم. وأعينوا عليّ أنفسكم، فرُبَّ مبتئس[٧] بقدومنا سيسر، ومسرور بقدومنا سيبتئس.

أيها الناس! إنا قد أصبحنا لكم ساسة[٨]، وعنكم ذادة[٩]، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خوّلنا[١٠]. فلنا

---

(١) اغتمزه أي طعن عليه.
(٢) أي الماشي في الليل.
(٣) أبرز بابه نصر.
(٤) جمع إحنة أي الحقد.
(٥) أي خلف أذني كناية عن الترك أي فلم أصغ إليه ولم أعرج عليه.
(٦) بالكسر والضم الهزال وداء معروف.
(٧) المحزون.
(٨) جمع سائس وهو المدبر لأمور القوم.
(٩) جمع ذائد وهو المدافع.
(١٠) أي أعطانا.

عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما ولينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا. وايم الله! إن لي فيكم لصرعى[١] كثيرة فليحذر كل منكم أن يكون من صرعاي[٢].

* * *

(١) جمع صريع وهو المصروع.
(٢) البيان والتبيين.

خطبة طارق بن زياد عند فتح الأندلس[١]

أيها الناس! أين المفرّ؟ البحر من ورائكم[٢]، والعدوّ أمامكم، وليس لكم والله إلاّ الصدق والصبر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام. وقد استقبلكم عدوكم بجيشه، وأسلحتُه وأقواتُه موفورة، وأنتم لا وزر[٣] لكم إلاّ سيوفكم. ولا أقوات إلاّ ما تستخلصونه من أيدي عدوكم. وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا[٤] لكم أمراً ذهب ريحكم[٥] وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم[٦] فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة[٧] هذا الطاغية[٨] فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة[٩]. وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت. وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة[١٠] ولا حملتكم دوني على خطة أرخص متاع فيها النفوس، أبدأ

(١) كان من البربر وكان مولى لموسى بن نُصير عامل الوليد بن عبد الملك على إفريقية وإليه ينسب جبل طارق في جنوب الأندلس ولخطبته هذه فضل كبير في الفتح الأندلسي وفيما أسس العرب هنالك من دولة وحضارة. توفي سنة ٩٢هـ.

(٢) لأنه أحرق السفن التي وصلوا بها إلى بلاد أسبانيا.

(٣) بفتحتين الملجأ.

(٤) أنجز الحاجة قضاها.

(٥) أي ضاعت قوتكم وغلبتكم.

(٦) أي تجاسرت عليكم بدل خوفها منكم.

(٧) المقاتلة.

(٨) الجبار ولقب ملك الروم وربما أطلقه العرب على غيرهم.

(٩) المنيعة بابه كرم.

(١٠) يقال: «إنه من الأمر بنجوة» إذا كان بعيداً منه بريئاً سلماً.

بنفسي. واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالأرفه[١] الألذ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي فما حظّكم فيه[٢] بأوفر من حظّي. وقد بلغكم ما أنشأت[٣] هذه الجزيرة من الخيرات العميمة[٤] وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً[٥] ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً[٦] وأختاناً[٧] ثقة منه بارتياحكم للطعان وسماحكم بمجالدة[٨] الأبطال والفرسان ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى وليّ أنجادكم[٩] على ما يكون لكم ذكراً في الدارين. واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى. فاحملوا معي فإن هلكت بعده فقد كفيتم أمره ولم يعوزكم[١٠] بطل عاقل تُسندون أموركم إليه، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه. واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا الهمّ من فتح هذه الجزيرة بقتله[١١].

* * *

(١) الأرغد الألين.

(٢) أي في الأمر الأشق.

(٣) ما أخرجت.

(٤) الكثيرة.

(٥) العُربون والعَرَبون والعُربان هو بعض الثمن يعطيه الرجل لمعاملة ويقول له إن تم العقد احتسبنا وإلا فهو لك ولا آخذه منك.

(٦) جمع صهر بالكسر وهو القريب المحرم للزوج أو الزوجة.

(٧) جمع ختن وهو القريب المحرم للزوجة.

(٨) المقاتلة.

(٩) النصر والإعانة.

(١٠) أعوزه المطلوب أعجزه وصعب عليه نيله.

(١١) نفح الطيب، للمقري.

خطبـة الحجّـاج بـن يـوسف الثقـفـي [١]

يا أهل العراق! إن الشيطان قد استبطنكم[٢] فخالط اللحم والدم، والعصب[٣] والمسامع والأطراف والشّغاف[٤]، ثم مضى إلى الأمخـاخ والأصمـاخ[٥]، ثـم ارتفـع فعشـش[٦]، ثـم بـاض وفـرّخ[٧]، فحشاكم[٨] نفاقاً وشقاقاً، قد اتخذتموه دليلاً تتبعونه، وقائداً تطيعونه، ومؤامراً[٩] تستشيرونه. فكيف تنفعكم تجربة، أو تعظكم

(١) جلاد بني أمية ودعامة ملكهم كان لسناً سليطاً قوي الحجة لا يكاد يعدله في ذلك أحد من أهل زمانه، قال مالك بن دينار: «ما رأيت أحداً أبين من الحجاج إنه كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم وإساءتهم إليه حتى لأحسبه صادقاً وأظنهم كاذبين» مع أنه قتل منهم بالصبر مئة وعشرين ألفاً وتوفي في سجونه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة. توفي عام ٩٥هـ في شهر رمضان وقيل في شوال.

(٢) استبطن الشيء دخل بطنه واستبطنه اتخذه له بطنة أي خاصة.

(٣) بفتح الصاد أطناب منتشرة في الجسم كله وبها تكون الحركة والحس ج أعصاب.

(٤) بالفتح غلاف القلب وحبته ج شغف وأشغفه.

(٥) جمع مُخ وكذا الأصماخ جمع صِماخ لكنه لا يساعده اللغة لأن المخ وهو نقى العظم جمعه مِخَاخ ومِخَخَة، والصماخ، وهو خرق الأذن الباطن الماضي إلى الراس جمعه صُمُخ وأصمِخَة.

(٦) أي اتخذ عشا وهو موضع الطائر ج عِشاش وعِشَشة وأعشاش وعشوش.

(٧) فرخت الطائرة أي صارت ذات فرخ وهو ولد الطائر.

(٨) ملأ بابه نصر.

(٩) المشاور.

وقعة، أو يحجزكم[١] إسلام، أو يردكم إيمان؟ ألستم أصحابي بالأهواز[٢]، حيث رمتم المكر، وسعيتم بالغدر، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته؟ وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون[٣] لواذاً[٤]، وتنهزمون سراعاً.

ويوم الزاوية[٥]! وما يوم الزاوية؟ بها كان فشلكم[٦] وتنازعكم وبراءة الله منكم، ونكوص[٧] وليه عنكم، إذ وليتم كالإبل الشوارد[٨] إلى أوطانها، النوازع[٩] إلى أعطانها[١٠]، لا يسأل المرء منكم عن أخيه، ولا يلوي[١١] الشيخ على بنيه حتى عضّكم السلاح وقصمتكم[١٢] الرماح.

ويوم دير الجماجم[١٣]! وما يوم دير الجماجم؟ بها كانت المعارك[١٤] والملاحم[١٥] بضرب يزيل الهام[١٦] عن مقيله[١٧]، ويذهل الخليل عن خليله.

---

(١) يمنع بابه نصر وضرب.
(٢) تسع كور بين البصرة وفارس لكل كورة منها اسم ولكن لا تفرد باسم هوز.
(٣) تسلّل وانسلّ من الزحام انطلق في استخفاء.
(٤) أي تهربون مستخفين ومستترين بعضكم ببعض.
(٥) مكان كانت به وقائع بين الحجاج وابن الأشعث.
(٦) الجبن عند حرب أو شدة بابه سمع.
(٧) نكص كنصر وضرب نكصاً ونكوصاً ومنكصاً عن الأمر أحجم وكف عنه.
(٨) جمع شاردة وهي النافرة بابه نصر.
(٩) جمع نازعة نَزع كفتح نزاعاً ونزوعاً إلى أهله أي اشتاق.
(١٠) جمع عطن مبرك الإبل حول الماء.
(١١) لا ينعطف ولا يعرج.
(١٢) كسرت بابه ضرب.
(١٣) مكان كانت به وقائع بين جيوش الحجاج وبين عبد الرحمن بن الأشعث.
(١٤) مواضع القتال.
(١٥) جمع ملحمة وهي الموقعة العظيمة القتل في الحرب.
(١٦) جمع هامة أي رأس كل شيء.
(١٧) المقر والمكان.

يـا أهـل العـراق! أهـل الكَفَـرات والغَـدَرات والثورة بعدوالثورات، إن أبعثكم إلى ثغوركم[١] غللتم[٢] وخنتم، وإن أمنتم أرجفتم[٣]، وإن خفتم نافقتم، لا تذكرون حسنةً، ولا تشكرون نعمةً، هل استخفّكم[٤] ناكثٌ، واستغواكم غاوٍ، أو استنصركم ظالم، أواستعضدكم[٥] خالعٌ إلا وثقتموه وآويتموه ونصرتموه ورضيتموه؟

هل شغب[٦] شاغب، أو نَعَب[٧] ناعبٌ، إلا كنتم أشياعه وأنصاره؟ألم تنهكم المواعظ؟ ألم تزجركم الوقائع؟ ثم التفت إلى أهل الشام فقال:

يا أهل الشام! إنما أنا لكم كالظليم[٨] الذاب عن فراخه[٩] ينفي عنها المدر، ويباعد عنها الحجر، ويُكنُّها من المطر ويحميها من الضباب[١٠]، ويحرسها من الذئاب.

يا أهل الشام! أنتم الجُنَّة[١١] والرِّداء، وأنتم العُدَّة والغطاء[١٢]

* * *

(١) جمع ثغر وهو المكان الذي يخاف منه هجوم العدو.

(٢) سرقتم.

(٣) أي خضتم في الأخبار السيئة والفتن قصد أن تهيجوا الناس.

(٤) استخفه استجهله وأزاله عن الحق والصواب.

(٥) استنصر.

(٦) شغب كفتح وفرح شَغْباً وشَغَباً القوم وبهم وعليهم هيج الشر عليهم.

(٧) نعب كفتح وضرب نعبا ونُعابا ونعيباً ونَعَباناً وتنعاباً الغراب صوّت.

(٨) الذكر من النعام ج ظِلمان وظُلمان وأظلمة.

(٩) عن أولاده.

(١٠) جمع ضب وهو حيوان من الزحافات ذنبه كثير العقد.

(١١) الترس ج جنن.

(١٢) البيان والتبيين.

عهـد عمر بن عبـد العزيز إلى قائد جيشه[١]

هذا ما عَهِدَ به عبدُ الله عمرُ أميرُ المؤمنين إلى منصور بن غالب حين بعثه على قتال أهل الحرب وحرب من استعرض من أهل الصلح، أمره في ذلك بتقوى الله على كل حال نزل به من أمر الله. فإن تقوى الله أفضل العدة[٢]، وأبلغ المكيدة، وأقوى القوة. وأمره أن لا يكون من شيء من عدوه أشدَّ احتراساً[٣] منه لنفسه ومَنْ معه من معاصي الله، فإن الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم. وإنما نعادي عدونا ونُنْصر عليهم بمعصيتهم. ولولا ذلك لم يكن لنا قوةٌ بهم، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عُدَّتنا كعدتهم. فلو استوينا نحن وهم في المعصية كانوا أفضلَ منا في القوة والعدد فإن لا ننصر عليهم بحقنا لا نغلبهم بقوتنا. ولا تكونوا لعداوة أحد من الناس أحذر منكم لذنوبكم. ولا تكونوا بالقدرة لكم أشدّ تعاهداً منكم لذنوبكم. واعلموا أن معكم من الله حفظةً عليكم يعلمون ما تفعلون في مسيركم ومنزلكم، فاستحيوا منهم، وأحسنوا صحابتهم، ولا تؤذوهم بمعاصي الله وأنتم زعمتم في سبيل الله.

---

(١) الرجل الصالح والخليفة الراشد وثاني عمر (رضي الله عنه) في الاسم والرسم وأسوة للملوك والأمراء إلى يوم القيامة، ولي الخلافة سنة ٩٩ هـ بعد سليمان بن عبد الملك فأدى الأمانة وبلغ الغاية في الورع والزهادة والتحري للحق والعدل والتعفف عن أموال المسلمين وخشونة العيش وجشوبة المطعم والملبس لحق بجده عمر (رضي الله عنه) سنة ١٠١هـ.

(٢) ما أعددته لحوادث الدهر من مال وسلاح ج عُدَد.

(٣) تحفظاً وتوقياً.

ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلطوا علينا وإن أذنبنا، فرب قوم قد سُلط عليهم شر منهم بذنوبهم فاسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم، وأسأل الله ذلك لنا ولكم.

وأمره أن يرفق بمن معه في سفرهم، ولا يجشّمهم[1] مسيراً يتعبهم فيه، ولا يقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يلقوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم، فإنما يسيرون إلى عدوّ مقيم جامٍّ الأهبة والكُراع[2] فإن لا يرفقوا بأنفسهم وكُراعهم في مسيرهم، يكن لعدوهم فضلٌ في القوة عليهم بإقامتهم في جمام[3] الأنفس والكُراع والله المستعان.

وأمره أن يقيم ومن معه في كل جمعة يوماً وليلة يكون لهم راحة يجمُّون فيها أنفسهم وكراعهم ويرمّون أسلحتهم وأمتعتهم.

وأمره أن ينحّي منزله عن قرى الصلح، فلا يدخلها أحد من صحابه لسوقهم وجماعتهم إلا من يثق بدينه وأمانته على نفسه، ولا يصيبوا منها ظلماً، ولا يتزوَّدوا منها إثماً، ولا يؤذوا أحداً من أهلها بشيء إلا بحق، فإنّ لهم حرمةً وذمةً ابتليتُم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم ففُوا لهم. ولا تستنصروا على أهل أرض الحرب بظلم أهل أرض الصلح فلعمري لقد أُعطيتم مما يحلّ منهم ما يُغنيكم عنهم، فلم أترك لكم خَلَلاً في العدة، ولا رقة في القوة فتظاهرت واكتفّت لكم العُدَد، وانتخبت لكم الجند، وأغنيتك بأرض الشرك عن أرض الصلح، وبسطت لك أفضل ما بسطت لغازٍ. فلم أجعل لك علة في التقوية وبالله الثقة ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) لا يكلفهم.
(٢) اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير.
(٣) أي الاستراحة.

وأمره أن تكون عيونه [١] من العرب وممن يطمئن إلى نصيحته وصدقه من أهل الأرض فإن الكذوب لا ينفع خبره ، وإن صَدَقَ في بعضه وإن الغاشَّ [٢] عين عليك وليس بعين لك والسلام عليك [٣]

* * *

(١) جمع عين وهو الجاسوس.
(٢) من يظهر خلاف ما أضمره وزيّن غير المصلحة.
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لأبي محمد عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤هـ.

وَصفُ الصَّيْـد

لعبد الحميد الكاتب[١]

أطال الله بقاء أمير المؤمنين مؤيَّداً بالعز، مخصوصاً بالكرامة، مُمَتَّعاً بالنعمة، إنه لم يُلَقَّ أحدٌ من المقتنِصين، ولا مُنِحَ متطرِّف[٢] من المتصيِّدين إلا دون ما لَقَّانا الله به من اليمن والبركة، ومنَحَنا من الظفَر والسعادة في مسيرنا من كثرة الصيد، وحسن المقتَنَص[٣]، وتمكين الجاسة[٤]، وقُرب الغاية، وسهولة المورد وعموم القدورة[٥]، إلا ما كان

(١) هو أبو غالب بن يحيى بن سعد المنسوب إلى بني عامر نسبة ولائية، فهو من سلالة غير عربية، إمام الكتاب ومجدّد صناعة الإنشاء والترسل، ثقف الكتابة على سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتب سرّه، ثم استكتبه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، فنفق عنده وحظي ما لم يحظ به غيره. وتمكن من إدخال تحسينات كثيرة على الصناعة، منها تنويع الخطاب، ومراعاة مقتضى الحال، والتفنن في البدء والختام، وإطالة التحميدات؛ نفقت له سوق الكتابة لمكانته من الخليفة وزعامته لطبقة الكتاب. قتل سنة ١٣٢هـ. والقطعة التي اقتبسناها تدل على اقتداره على اللغة والتعبير، وحسن التصوير، وعلى سعة اللغة العربية وغزارة مادتها وإسعافها للكتاب في أغراض متنوعة وأزمنة مختلفة.

(٢) مُتَطَرِّف: تطرَّف عليهم: أغار.

(٣) المقتنص: موضع الصيد.

(٤) الجاسة: لعلّها محرّفة عن الحبالة.

(٥) القدورة: القدرة.

من محاولة الطلب، وشدة النَّصَب[١]، لنافر[٢] الصيد، وقائد الطريدة[٣] التي أمْعَنَّا في الطلب لها، وأعجزَنا البُهرُ[٤] عن اللَّحاق بها، لتفاوت سبقها، ومنقطع هربها، ومتفرِّق سُبُلها، ثم آل بنا ذلك إلى حسن الظفر، وتناول الأرب، ونهاية الطرب.

وإني أخبر أمير المؤمنين أنّا خرجْنا إلى الصيد بأعدى[٥] الجوارح[٦]، وأثقفِ[٧] الضواري[٨]؛ وأكرمها أجناساً، وأعظمها أجساماً، وأحسنها ألواناً، وأحدها أطرافاً، وأطولها أعضاءً، قد ثُقِّفتْ بحسن الأدب، وعُوِّدت شدّةَ الطلب، وسبرت[٩] أعلام[١٠] المواقف، وخبرَتْ المجاثم[١١]، مجبولةً على ما عُوِّدت، ومقصورةً على ما أدِّبتْ؛ ومَعَنَا من نفائس الخيل المخبورة[١٢] الفراهة[١٣]، من الشِّهْرِيَّة[١٤] الموصوفة بالنجابة، والجري والصلابة، فلم نزل بأخفض سير، وأثقفِ طلب. وقد

---

(١) النصب: (بفتح النون والصاد) العناء والتعب.
(٢) النافر: مُهَيِّج الصيد وسائقه، ج نَفْر ونُفَّر.
(٣) الطريدة: ما طردت من صيد ونحوه ج الطرائد.
(٤) البُهْرُ: انقطاع النَّفَس من الإعياء.
(٥) أعدى: أكثر جرياً وعدواً.
(٦) الجوارح: جمع جارحة، وهي ذات الصيد من السباع والطير والكلاب.
(٧) أثقف: أحذق، أمهر بابه سمع وكرم.
(٨) الضواري: جمع الضاري وهو الكلب المتعوّد للصيد والمولع به.
(٩) سَبَرَتْ (الأمرَ) جرّبه واختبره بابه نصر وضرب.
(١٠) أعلام: جمع علم بفتحتين، شيء يُنصب فيهتدى به.
(١١) المجاثم: جمع مجثم بفتح الميم، وهو موضع الجثوم، أي موضع تلبّد الطائر والحيوان ونحوهما بالأرض، بابه نصر وضرب.
(١٢) المخبورة: المعلومة عن تجربة واختبار ومشاهدة.
(١٣) الفراهة: النشاط في السير.
(١٤) الشِّهرِيَّة: البراذين، وهو جمع برذون (بكسر فسكون ففتح فسكون) التركي من الخيل، وخلافها العراب.

أمطرَتْنا السماء مطراً متداركاً[١]، فَرَبَتْ منه الأرض، وزهَرَ البقل، وسكن القتامُ[٢]، من مُثار السنابك[٣]، ومتشعِّباتِ الأعاصير، مهلةَ أن سرْنا غَلَوات[٤]، ثم برزت الشمس طالعةً، وانكشفت من السحاب مسفرةً، فتلألأت الأشجار، وضحك النُوّار[٥]، وانجلت الأبصار، فلم نر منظراً أحسن حُسناً، ولا مرموقاً أشبه شكلاً، من ابتسام نور الشمس عن اخضرار زهرة الرياض، والخيلُ تمرح بنا نشاطاً، وتجتَذِبنا أعِنّتُها انبساطاً؛ ثم لم نلبث أن علَتنا ضبابةٌ تَقصُر طرفَ الناظر، وتخفي سُبُلَ السلام، تغشانا تارةً وتنكشف أخرى، ونحن بأرض دَمِثَة[٦] التراب، أشبَة[٧] الأطرافِ، مُغدِقَةِ[٨] الفِجَاج، مملوءةٍ صيداً، من الظبَاء والثعالب والأرانب، فأدّانا المسيرُ إلى غابةٍ دونها مألَف الصيد، ومجتَمَع الوحش، ونهاية الطلب، قد جَاوَزْناها ونحن على سبيل الطلب ممعنون، وبكلٍّ حرَّة[٩] جَوْنة[١٠] متفرِّقون، فرجع بنا العودُ على البدء، وقد انجلت الضبابة، وامتدّ البصر، وأمكن النظر، فإذا نحن بِرَعلَةٍ[١١] من ظِبَاء، وخِلْفةٍ[١٢] آرامٍ[١٣]

---

(١) متداركاً: متتابعاً متلاحقاً.

(٢) القتام: (بالفتح) الغبار الأسود.

(٣) السنابك: جمع سُنْبُك (بضم فسكون فضم) وهو طرف الحافر.

(٤) غلوات: جمع غَلْوة؛ رمية سهم أبعد ما تقدر عليه.

(٥) النُوَّار: (بضم النون مع فتح الواو المشدّدة) الواحدة «نُوَّارة» ج نواوير، الزهر.

(٦) دَمِثة: لينة ذات الرمل.

(٧) الأشبة: الملتفة الشجر.

(٨) مغدقة: متسعة.

(٩) حرّة: أرض ذات حجارة نخرة سود.

(١٠) جَوْنة: (بفتح فسكون) السوداء.

(١١) رَعْلة: (بفتح فسكون) جماعة متفرقة. ج رِعَال، وأرْعَال، وأراعيل.

(١٢) خِلْفَة: ما يبقى أو يتبع، يقال «في البئر خِلْفَة من الماء» أي بقية.

(١٣) آرام: جمع رِئْم (بكسر فسكون) الظبي الأبيض.

يرتَعْن[١] آنسات، قد أحَالَتْهنّ الضبابةُ عن شخصنا، وأذهَلَهُنَّ أنيق الرياض عن استماع حسّنا، فلم نَعُجْ[٢] إلا والضواري لائحة لهنّ من بعد الغاية، ومنتهى نظرَ الشاخص ثم مدّت الجوارح أجنحتها، واجتذبت الضواري مَقَاوِدَها[٣]، فأمرت بإرسالها على الثقة بمحضرها[٤]، وسرعة الجوارح في طلبها، فمرّت تحُفُّ حفيفَ[٥] الريح عند هُبوبها، تُسِفّ[٦] الأرضَ سفًّا، كاشفةً عن آثارها، طالبةً لخيارها، حارشة[٧] بأظفارها، قد مزّقتها تمزيقَ الريح الجراد؛ فمن صائح بها وناعر[٨]، وهاتف بها وناعق[٩]، يدعو الكلبَ باسمه، ويفدِّيه بأبيه وأمّه؛ وراكضٍ تحت مِقَرِّه، وخافقٍ[١٠] يطلبه الرمح، وطامح[١١] يمنعه، وسانح[١٢] قد عارضه بارح، قد حيّرَتْنا الكثرة، وألهجَتْنا[١٣] القدرة، حتى امتلأت أيدينا من صنوف الصيد، والله المنعم الوهّاب.

---

(١) يرتعن: من (فتح) رتعاً ورتوعاً ورتاعاً (في المكان) أقام وتنعم وأكل فيه وشرب ما شاء في خصب وسعة ورغد.
(٢) نَعُجْ: عاج يعوج عوجاً ومعاجاً (السائر) وقف (إلى أو على المكان) مال وعطف.
(٣) مقاود: جمع مِقْوَد(بكسر الميم) ما تقاد به الدابة من حبل ونحوه.
(٤) محضر: ج محاضر، الحضور.
(٥) حفيف: صوت الريح.
(٦) تسفّ: أسفّ (الطائر والسحاب ونحوه) مرّ على وجه الأرض، أو دنا من الأرض.
(٧) حارشة: حرش من (ض) حرشاً وتحراشاً: خدش.
(٨) ناعر: صائح، مصوّت.
(٩) ناعق: من (س) نعقاً (الغراب) صاح.
(١٠) خافق: غائب.
(١١) طامح: ناشز، جامح.
(١٢) سانح: ج سوانح الذي يأتي من جانب اليمين، ويقابله «البارح» وهو الذي يأتي من جانب اليسار، والعرب تتيمّن بالسانح، وتتشاءم بالبارح.
(١٣) ألهج: (فلاناً بالشيء) جعله يلهج ويولع به.

ثم مِلنا يا أمير المؤمنين بهداية دليل قد أحكمتْه التجارب، وخبر أعلامَ المذانب، إلى غدير أفيح[١]، وروضة خَضِرة، مستأجمة[٢] بتلاوين[٣] الشجر، ملتفّة بصنوف الخَمَرَ[٤]، مملوءة من أنواع الطير، لم يذْعَرهنّ صائد، ولا اقتنصهنّ قانص، فَخُفِقَ لها بطبول، وصُفر بنفير الحتف، فثار منها ما مَلأ الأُفُقَ كثرتُها، وراعت الجوارحَ خَفَقَاتُ أجنحتها؛ ثم انبرَت[٥] البُزاة[٦] لها صائدة، والصقور كاسرة[٧]، والشواهين ضارية، يرفعن الطلب لها، ويخفِضْنَ الظفَر بها، حتى سئمنا من الذبح، وامتلأنا من النضيح[٨]، كأنّا كتيبةٌ[٩] ظَفِرَت ببغيتها، وسرِيّة[١٠] نُصِرت على عدوّها، وألحقتْ ضعيفَها بقويّها وغَلبتْ محسنَها بمسيئها؛ لا نملك أنفسنا مَرَحاً، ولا نستفيق من الجذل[١١] بها فَرحاً، بقيّةَ يومنا، والله المنعم الوهّاب.

* * *

(١) أفيح: الواسع.

(٢) مستأجمة: ملتوية ملتفة.

(٣) تلاوين الشجر: صنوف الشجر، جمع تلوين.

(٤) الخَمَر: (بفتحتين) الشجر.

(٥) انبرت (لها): تصدّت وتعرّضت.

(٦) البُزاة: الواحد: الباز والبازي، طير من الجوارح يُصَاد به، وهو أنواع كثيرة.

(٧) كاسرة: من (ض) كسراً وكسوراً (الطائر) ضمّ جناحيه يريد الوقوع.

(٨) النضيح: العرق.

(٩) الكتيبة: ج كتائب، القطعة من الجيش، أو الجماعة من الخيل.

(١٠) سريّة: ج سرايا: قطعة من الجيش.

(١١) الجَذَل: الفرح.

البعثَةُ المحمَّديَّــة

من رسالة أبي الربيع محمد بن الليث[١] التي كتبها للرشيد إلى قسطنطين ملك الروم:

إن الله عزّ وجلّ اصطفى الإسلام لنفسه، واختار له رسلاً من خلقه، وابتعث كل رسول بلسان قومه، ليبيّن لهم ما يتّبعون، ويعلّمهم ما يجهلون من توحيد الرب وشرائع[٢] الحق ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥] فلم تزل رسل الله قائمة بأمره، متوالية على حقه، في مواضي الدهور وخوالي القرون[٣]، وطبقات الزمان، يصدّق آخرهم بنبوّة أوّلهم، ويصدّق أوّلهم قول آخرهم؛ ومفاتح دعوتهم واحدة لا تختلف، ومجامع مِلّتهم ملتئمة[٤] لا تفترق، حتى تناهت الولاية والوراثة التي بنى عيسى عليه الصلاة والسلام عليها وبشّر بها إلى النبيّ الأمّيّ الذي انتخبه الله لوحيه، واختاره بعلمه.

فلم يزل ينقله بالآباء الأخاير[٥]، والأمهات الطواهر، أمّة فأمة، وقرناً

---

(١) لم نعثر على ترجمته، ويظهر أنه كاتب قدير، ومتكلم كبير.

(٢) جمع شريعة وهي ما شرع الله لعباده من السنن والأحكام.

(٣) أي الدهور الماضية من إضافة الصفة إلى الموصوف وكذا خوالي القرون أي القرون الخالية.

(٤) مجتمعة.

(٥) جمع أخير اسم التفضيل.

فقرناً حتى استخرجه الله في خير أوان، وأفضل زمان، من أثبت محاتد[١] أرومات[٢] البريّة[٣] أصلاً، وأعلى ذوائب[٤] نبعات[٥] العرب فرعاً، وأطيب منابت أعياص[٦] قريش مغرساً، وأرفع ذُرى[٧] مجد بني هاشم سمكاً[٨]: محمد ﷺ خيرها عند الله وخلقه نفساً، على حين أوحشت الأرضُ من أهل الإسلام والإيمان، وامتلأت الآفاق من عبدة الأصنام والأوثان، واشتعلت البدع في الدين، وأطبقت الظُلم على الناس أجمعين، وصار الحق رسماً عافياً[٩] خلقاً[١٠] بالياً، ميتاً وسط أموات، ما إن يُحسُّون للهدى صوتاً ولا للدّين أثراً يتّبعونه. فلم يزل رسول الله ﷺ قائماً بأمر الله الذي أُنزل إليه، يدعوهم إلى توحيد الرب عزّ وجلّ، ويحذِّرهم عقوبات الشرك، ويجادلهم بنور البرهان، وآيات القرآن، وعلامات الإسلام، صابراً على الأذى محتملاً للمكروه.

قد ألهمه الله عز وجلّ أنه مظهر دينه، ومُعِز تمكينه، وعاصمه ومستخلفه في الأرض، فليس يثنيه[١١] ريب، ولا يلويه[١٢] هيب[١٣]،

---

(١) جمع محتد وهو الأصل.
(٢) جمع أرومة وهي الأصل.
(٣) الخلق ج برايا.
(٤) جمع ذؤابة وهي من كل شيء أعلاه.
(٥) جمع نبعة يقال هو من نبعة كريمة أي من أصل كريم.
(٦) أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر وهم العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص والعويص.
(٧) جمع ذروة بالضم وهي من كل شيء أعلاه.
(٨) بالفتح والسكون الرفع.
(٩) عفا يعفو عفوا وعفاءً الأثر والمنزل امّحى ودرس وبلي.
(١٠) البالي للمذكّر والمؤنث يقال ثوب خلق وجبّة خلقٌ ج أخلاق وخلقان.
(١١) ثنى يثني ثنياً أي صرف.
(١٢) لوى (واوية العين يائية اللام) يلوي ليًّا ولَوْياً ولُوِياً أي ثناه وصرفه.
(١٣) الخوف.

ولا يعنيه أذى، حتى إذا قهرت البيّنات ألبابهم، وبهرت[١] الآيات أبصارهم، وخصم[٢] نور الحق حجتهم، فلم تمتنع القلوب من المعرفة بدون صدقه، ولم تجد العقول سبيلاً إلى دفع حقه، وهم على ذلك مكذبون بأفواههم، جاحدون بأقوالهم، كما قال الله عز وجل العليم بما يُسرّون، الخابر بما يعلنون: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣] بغياً وعداوة، وحسداً ولجاجة[٣] افترض الله عليه قتالهم، وأمره أن يجرّد السيف لهم، وهم في عصابة يسيرة، وعدة قليلة، مستضعفين مستذلين، يخافون أن يتخطفهم العرب، وتداعى[٤] عليهم الأمم، وتستحملهم[٥] الحروب، فآواهم في كنفه، وأيدهم بنصره، وأنذرهم بمقدمة من الرعب، ومشغلة من الحق، وجنود من الملائكة، حتى هزم كثيراً من المشركين بقلتهم، وغلب قوة الجنود بضعفهم، إنجازاً لوعده، وتصديقاً لقوله: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧٣]

فأحسن النظر وقلّب الفكر في حالات النبي ﷺ من الوحي قائماً لله، لتجد لمذاهب فكرك وتصاريف نظرك، مضطرباً واسعاً، ومعتمداً نافعاً، وشعوباً جمة، كلها خير يدعوك إلى نفسه، وبيان ينكشف لك عن محضه.

وأخبِر أمير المؤمنين ما كنت قائلاً لو لم تكن البعثة للنبي ﷺ بلغتك، ولم تكن الأنباء بأموره تقررت قبلك، ثم قامت الحجة بالاجتماع عندك، وقالت الجماعة المختلفة لك: إنه نجم[٦] بين ظهراني مثل هذه الضلالات

---

(١) غلبت بابه فتح.
(٢) خصمه كضرب خصماً غلبه في الخصومة.
(٣) لج كسمع وضرب لججاً ولجاجاً ولجاجة عند الخصومة.
(٤) أصله تتداعى فحذفت إحدى تائيه ومعناه يجتمعون عليهم ويتألبون بالعداوة.
(٥) تلقي عليهم حملها وعبأها.
(٦) نجم الشيء نجوماً ظهر وطلع بابه نصر.

المستأصلة[١] والجماعات المتسأسدة[٢]، التي ذكر أمير المؤمنين من قبائل العرب، وجماهير الأمم، وصناديد[٣] الملوك، ناجم قد نصب[٤] لها وغَرِي[٥] بها، يجهّل أحلامها، ويكفّر أسلافها، ويفرّق أُلافها، ويلعن آباءها، ويضلّل أديانها، وينادي بشهاب الحق بينها، ويجهر بكلمة الإخلاص إلى من تراخى[٦] عنها، حتى حميت[٧] العرب، وأنفت العجم، وغضبت الملوك، وهو على حال ندائه بالحق ودعائه إليه، وحيداً فريداً، لا يحفل بهم غضباً، ولا يرهب عنتا، يقول الله عز وجل: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ [المائدة: ٥] أكنت تقول فيما تجري الأقاويل به ويقع الآراء عليه، إلا أنه أحد رجلين: إما كاذب يجهل ما يفعل ويعمى عما يقول، وقد دعا الحتف إلى نفسه، وأذن لقومه في قتله، فليست الأيام بمادّة ولا الحال بثابتة له إلا ريثما تستلحمه[٨] أسبابهم، وينهض به حلماؤهم، غضباً لربهم، وأنفة لدينهم، وحميّة لأصنامهم، وحسداً من عند أنفسهم، وإما صادق بصير بموضع قدمه، ومرمى نبله، قد تكفل الله عزّ وجلّ بحفظه، وصحبه بعزه، وجعله في حرزه[٩]، وعصمه من الخلق، فليست الوحشة بواصلة مع صحبة الله إليه، ولا الهيبة بداخلة مع عصمة الله عليه، ولا سيوف الأعداء بمأذون لها فيه.

---

(١) الثابتة.

(٢) القوية.

(٣) جمع صنديد بالكسر السيد الشجاع.

(٤) يقال نصب لفلان أي عاداه بابه ضرب ونصر.

(٥) غري وأُغرِي بكذا أولع به من حيث لا يحمله عليه حامل.

(٦) تباعد عنها.

(٧) غضبت بابه سمع.

(٨) أي تعلق به وتنشب.

(٩) حفظه.

ثم أن آيتكم[١] يا أهل الكتاب! لو قيل لكم: إن الرجل الذي يدّعي العصمة وينتحل[٢] المنعة، قد نجمت الأمور به على ما قال، وسلمت الحال له فيما ادّعى حتى نصب لعمارات[٣] العرب، وجماعات الأمم، يقاتل بمن طاوعه من خالفه، وبمن تابعه من عانده، جادّاً مشمّراً، محتسباً واثقاً بموعود الله ونصره، لا تأخذه لومة لائم في ربه، ولا يؤخذ لديه غميزة[٤] في دينه، ولا يلفته خذلان خاذل عن حقه، حتى أعز الله دينه، وأظهر تمكينه، وانقادت الأهواء له، واجتمعت الفرق عليه. ألم يكن ذلك يزيد حقه يقيناً عندكم، ودعوته ثبوتاً فيكم، حتى تقول الجماعة من حلمائكم وأهل الحنكة[٥] من ذوي آرائكم: ما كان الرجل ـ إذا كان وحيداً فريداً قليلاً ضعيفاً ذليلاً معروفاً بالعقل منسوباً إلى الفضل ـ ليجترىء أن يقول: إن الله عزّ وجلّ أوحى إليه فيما أنزل من الكتاب عليه أن يعصمه من العرب جميعاً ويمنعه من الأمم طرّا[٦]، حتى يبلّغ رسالات ربّه، ويظهره على الدين كلّه، ويدخل الناس أفواجاً في دينه، إلا وهو على ثقة من أمره، ويقين من حاله[٧].

* * *

---

(١) كذا في الأصل، وهذا تحريف لا يستقيم عليه المعنى والصحيح (ما رأيكم).
(٢) يدعي.
(٣) جمع عمارة وهي القبيلة.
(٤) ضعف في العقل والعمل.
(٥) بالضم التجربة.
(٦) أي جميعاً.
(٧) عصر المأمون وجمهرة رسائل العرب.

بخيلٌ حَكيم

للجاحظ[١]

قال معبد: نزلنا دار الكندي أكثر من سنة، نُروِّج[٢] له الكراء، ونقضي له الحوائج، ونفي له بالشرط. قلت: قد فهمت ترويج الكراء، وقضاء الحوائج، فما معنى الوفاء بالشرط؟ قال: في شرطه على السُّكّان أن يكون له روث الدابّة، وبعر الشاة، ونشوار[٣] العلوفة[٤]، وألا يخرجوا عظماً، ولا يخرجوا كساحة[٥]، وأن يكون له نوى[٦] التمر، وقشور الرمّان، والغرفة من كل قدر تطبخ للحبلى في بيته! وكان في ذلك يتنزل[٧] عليهم. فكانوا لطيبه[٨]، وإفراط بخله، وحسن حديثه يحتملون ذلك.

قال معبد: فبينا أنا كذلك، إذ قدم ابن عم لي ومعه ابن له، إذا رقعة

---

(١) مرت ترجمته في الجزء الأول.

(٢) أي نجعل كراء منازله رائجاً نافقاً بما نبثه بين الناس من مدحها وتزيينها عندهم.

(٣) بالكسر ما تبقيه الدابة من العلف فارسي معرب.

(٤) ما يعلف من الغنم وغيرها.

(٥) مثل الكناسة وهو ما يكسح.

(٦) جمع نواة وهي عجمة التمر ونحوه ويجمع أيضاً على نَوَيات وجج أنواء ونُويّ ونَويّ.

(٧) أصل التنزل النزول في مهلة والمعنى أنه كان يتدرج في فرض هذه الفروض عليهم.

(٨) أي لطيب نفسه ودعتها.

منه[١] قد جاءتني: «[٢] إن كان مقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين احتملنا ذلك، وإن كان إطماع السُّكان في الليلة الواحدة يجرّ علينا الطمع في الليالي الكثيرة». فكتبت إليه: «ليس مقامهما عندنا إلاّ شهراً أو نحوه» فكتب إليّ: «إنَّ دارك بثلاثين درهماً. وأنتم ستّة، لكل رأس خمسة. فإذ قد زدت رجلين، فلا بد من زيادة خمستين. فالدار عليك من يومك هذا بأربعين!»

فكتبت إليه «وما يضرّك من مقامهما، وثقل أبدانهما على الأرض التي تحمل الجبال، وثقل مؤنتهما[٣] عليّ دونك؟ فاكتب إليّ بعذرك لأعرفه» ولم أدر أني أهجم على ما هَجَمْت، وإني أقع منه فيما وقعت.

فكتب إليّ: «الخصال[٤] التي تدعو إلى ذلك[٥] كثيرة، وهي قائمة معروفة: من ذلك سرعة امتلاء البالوعة[٦]، وما في تنقيتها من شدّة المؤنة. ومن ذلك أن الأقدام إذا كثرت كثر المشي على ظهور السطوح المطيّنة[٧] وعلى أرض البيوت المجصّصة[٨]، والصعود على الدرج[٩] الكثيرة، فينقشر[١٠] لذلك الطين، وينقلع[١١] الجصّ، وينكسر

(١) أي من الكندي.
(٢) هذا نص الرقعة.
(٣) المؤنة والمؤونة أي القوت.
(٤) أي الأسباب المقتضية.
(٥) إلى طلب ما طلبته منك.
(٦) ثقب أو قناة في وسط الدار مثلاً يجري فيها الماء الوسخ والأقذار ج بواليع وكذا البلاّعة والبلّوعة جمعهما بلاليع.
(٧) طَيَّن الحائط طلاه بالطين.
(٨) جصّص البناء طلاه بالجص والجص بالفتح والجص بالكسر ما تطلى به البيوت من الكلس.
(٩) جمع درجة وهي المرقاة.
(١٠) مطاوع قشر وقشّر وكذا تقشّر وقشره كشط جلده أو قِشره.
(١١) مطاوع قلع وكذا تقلع واقتلع وقلع الشيء انتزعه من أصله.

العتب[١]، مع إنثناء[٢] الأجذاع[٣]، لكثرة الوطء، وتكسرها لفرط الثقل.

وإذا كثر الدخول والخروج، والفتح والإغلاق، والإقفال وجذب الأقفال تهشمت[٤] الأبواب، وتقلّعت الرزات[٥].

وإذا كثر الصبيان، وتضاعف البوش[٦] نزعت مسامير[٧] الأبواب، وقُـلِعت كل ضَبَّـة[٨]، ونزعت كـل رزة، وكسرت كـل جـوزة[٩]، وحفر فيها آبار الددن[١٠]، وهشموا[١١] بلاطها[١٢] بالمداحي[١٣]. هذا مع تخريب الحيطـان بالأوتـاد، وخشب الرفـوف[١٤] وإذا كثر العيـال والـزوّار، والضِيفـان والنـدمـاء[١٥] احتيـج مـن صـبّ المـاء، واتخـاذ

---

(١) جمع عتبة وهي التي يوطأ عليها وفي المختار قال ابن شميل: العتبة في الباب هي العليا والأسكفة (بضم فسكون فضم ففاء مشددة مفتوحة) هي السفلى.

(٢) الانعطاف.

(٣) جمع جذع وهو سهم السقف ويجمع ايضاً على جذوع.

(٤) تكسرت.

(٥) جمع رزّة بالفتح الحديدة التي يدخل فيها القفل ويجمع أيضاً على رِزاز ورُزَز.

(٦) بفتح فسكون والبوش بضم الباء الجماعة والعيال وقيل الجماعة من الناس المختلطين.

(٧) جمع مسمار وهو وتد من حديد.

(٨) نوع من المغاليق وفي اللسان حديدة عريضة يضبب بها الباب.

(٩) يريد شجرة الجوز إذ كان هذا الشجر مما يغرس في البيوت لذلك العهد.

(١٠) اللهو واللعب والمراد بآبار الددن الحفر التي يحفرها الصبيان ليرموا فيها الأُكر أو نحو ذلك وسماها آباراً على المجاز.

(١١) كسروا وبابه ضرب.

(١٢) بالفتح الأرض المستوية الملساء وأيضاً صفائح الحجارة التي يفرش بها.

(١٣) جمع مدحاة (بكسر فسكون) في اللسان والمدحاة خشبة يدحى بها فتمر على وجه الأرض لا تأتي على شيء إلا اجتحفته أي جرفته.

(١٤) جمع رف بالفتح خشبة أو نحوها تشد إلى الحائط فتوضع عليها طرائف البيت.

(١٥) جمع نديم وهو المنادم على الشرب والرفيق والصاحب ويجمع أيضاً على نِدام ونُدمان.

الحببة[١] القاطرة، والجرار[٢] الراشحة[٣]، إلى أضعاف ما كانوا عليه. فكم من حائط قد تأكّل[٤] أسفله، وتناثر أعلاه، واسترخى أساسه، وتداعى[٥] بنيانه، من قطر حبّ، ورشح جر، ومن فضل ماء البئر، ومن سوء التدبير. وعلى قدر كثرتهم يحتاجون من الخبيز والطبيخ[٦]، ومن الوقود والتسخين، والنار لا تبقي ولا تذر[٧]. وإنما الدور حطب لها. وكل شيء فيها من متاع فهو أكل لها. فكم من حريق قد أتى على أصل الغلّة[٨]، فكلفتم أهلها أغلظ النفقة. وربما كان ذلك عند غاية العسرة، وشدة الحال. وربّما تعدت[٩] تلك الجناية إلى دور الجيران. وإلى مجاورة الأبدان والأموال. فلو ترك الناس حينئذ رب الدار ـ وقدر بليّته ومقدار مصيبته ـ لكان عسى ذلك أن يكون محتملاً. ولكنهم يتشاءمون به. ولا يزالون يستثقلون ذكره، ويكثرون من لائمته[١٠] وتعنيفه.

نعم! ثم يتخذون المطابخ في العلالي[١١] على ظهور السطوح، وإن

---

(١) جمع حُبّ بالضم وهو الجرة الكبيرة أو الخابية ويجمع أيضاً على حِباب بالكسر وأحباب.

(٢) جمع جرة وهي إناء من خزف له بطن كبير وعروتان وفم واسع ويجمع أيضاً على جرّ بدون التاء.

(٣) رشح كفتح رشحاً ورشحاناً تحلب منه الماء ونحوه.

(٤) يقال: تأكل السن أو العود أي صار منخوراً.

(٥) أي تصدّع من جوانبه وآذن بالانهدام والسقوط.

(٦) المخبوز والطبيخ أي الطعام المطبوخ.

(٧) أي لا تترك، ولا يستعمل بهذا المعنى سوى المضارع والأمر.

(٨) الدخل من كراء دار وفائدة أرض ونحو ذلك ج غلاّت وغلال.

(٩) تجاوزت.

(١٠) الملامة.

(١١) جمع عُليّة (بكسر العين أو ضمها مع تشديد اللام مكسورة وتشديد الياء مفتوحة) وهي الحجرة العالية.

كان في أرض الدار فضل وفي صحنها متسع، مع ما في ذلك من الخطار[١] بالأنفس، والتغرير[٢] بالأموال، وتعرض الحُرم[٣] ليلة الحريق لأهل الفساد، وهجومهم[٤] مع ذلك على سر مكتوم، وخبيء[٥] مستور، من ضيف مستخف، ورب دار متوارٍ، ومن شراب مكروه، ومن كتاب متهم، ومن مال جم[٦] أريد دفنه، فاعجل الحريق أهله عن ذلك فيه، ومن حالات كثيرة، وأمور لا يحب الناس أن يُعرفوا بها. ثم لا ينصبون التنانير[٧]، ولا يمكنون للقدور، إلا على متن السطح، حيث ليس بينهما وبين القصب[٨] والخشب إلا الطين الرقيق، والشيء لا يقي. هذا مع خفة المؤنة في إحكامها، وأمن القلوب من المتالف[٩] بسببها.

فإن كنتم تقدمون على ذلك مِنّا ومنكم وأنتم ذاكرون فهذا عجب، وإن كنتم لم تحفلوا بما عليكم في أموالنا ونسيتم ما عليكم في أموالكم فهذا أعجب.

ثم إن كثيراً منكم يدافع[١٠] بالكراء، ويماطل[١١] بالأداء، حتى إذا

---

(١) مصدر خاطر بكذا أي فعل ما يكون الخوف فيه أغلب.
(٢) أي المخاطرة بها وأصله من غرر بنفسه حملها على غير ثقة، كذا في اللسان وفيه أيضاً وغرر بنفسه وماله تغريراً وتغرُّة عرضها للهلكة من غير أن يعرف.
(٣) جمع حرمة وهي ما لا يحل انتهاكه.
(٤) معطوف على أهل أي وتعرض الحرم لهجومهم.
(٥) المخبوء.
(٦) الكثير من كل شيء.
(٧) جمع تنور وهو ما يخبز فيه.
(٨) كل نبات يكون ساقه أنابيب وكعوباً.
(٩) جمع متلفة أي مهلكة.
(١٠) يماطل فيه ففي اللسان دافع فلان فلاناً في حاجة إذا ماطله فيها فقوله بالكراء بمعنى في ومفعول يدافع محذوف أي المالك والكراء مصدر في الأصل من كاريته على المفاعلة.
(١١) يسوّف بوعد الوفاء مرة بعد أخرى.

جمعت أشهر عليه، فرّ وخلّى أربابها جياعاً، يتندّمون على ما كان من حسن تقاضيهم وإحسانهم. فكان جزاؤهم وشكرهم اقتطاع حقوقهم، والذهاب بأقواتهم. ويسكنها الساكن حين يسكنها وقد كسحناها[١] ونظفناها، لتحسن في عين المستأجر، وليرغب فيها الناظر، فإذا خرج ترك فيها مزبلة[٢] وخراباً، لا تصلحه إلا النفقة الموجعة. ثم لا يدع مَترساً[٣] إلا سرقه، ولا سلّماً إلا حمله، ولا نقضاً[٤] إلا أخذه، ولا برّادة[٥] إلا مضى بها معه.

ولا يدع دق الثوب، والدق في الهاون[٦] والمنحاز[٧]، في أرض الدار ويدق على الأجذاع والحواضن[٨] والرواشن[٩]، وإن كانت الدار

---

(١) كنسنا ونظّفنا بابه فتح.

(٢) موضع الزبل وهو السرقين والسرقين ما تستمد به الأرض والمراد ترك فيها أوساخاً وأقذاراً.

(٣) خشبة توضع خلف الباب لتدعمه والكلمة فارسية معربة معناها في العربية لا تخف.

(٤) بالضم ما انتقض من البنيان ج أنقاض ونقوض.

(٥) إناء يبرد الماء.

(٦) ما يدق فيه الدواء ونحوه ج هواوين.

(٧) الهاون.

(٨) جمع حاضنة، قال أحمد العوامري بك وعلي الجارم بك في تعليقهما على كتاب البخلاء: «ويراد بها كما يظهر السهوم التي تحمل الجذوع ولم نجد للكلمة أثراً في كتب اللغة بمعنى يلائم المقام ثم رأينا في مقدمة طبعة ليدن ما يفيد أن المراد بالحواضن هنا الأعمدة التي تدعم السقف».

(٩) جمع روشن ـ في الإفصاح الروشن والجناح ـ خشب يخرج من حائط الدار إلى الطريق ولا يصل إلى جدار آخر يقابله، فإن وضعت به أعمدة من الطريق فهو الجناح وإلا فهو الروشن، وقال في اللسان: والروشن الرف والروشن الكوّة وهي النافذة.

مقرمدة[١]، أو بالآجر[٢] مفروشة، وقد كان صاحبها جعل في ناحية منها صخرة[٣]، ليكون الدق عليها، ولتكون واقية دونها، دعاهم التهاون والقسوة، والغشّ والفسولة[٤]، إلى أن يدُقّوا حيث جلسوا، وإلى ألاَّ يحفلوا بما أفسدوا لم يعط قط لذلك أرشاً[٥]، ولا استحلّ صاحب الدار، ولا استغفر الله منه في السرّ. ثم يستكثر من نفسه في السنة إخراج عشرة دراهم، ولا يستكثر من ربّ الدار ألف دينار في الشراء، يذكر ما يصير إلينا مع قلّته، ولا يذكر ما يصير إليه مع كثرته.

هذا والأيام التي تنقض المُبْرم، وتبلى الجدّة، وتفرق الجميع المجتمع، عاملة في الدور كما تعمل في الصخور، وتأخذ من المنازل كما تأخذ من كل رطب ويابس، وكما تجعل الرطب يابساً هشيماً[٦]. والهشيم مضمحِلاً. ولانهدام المنازل غاية قريبة، ومدة قصيرة، والساكن فيها هو كان المتمتع بها، والمنتفع بمرافقها[٧] وهو الذي أبلى جدّتها وتحلاّها وبه هرمت[٨] وذهب عمرها لسوء تدبيره.

فإذا قسمنا الغرم عند انهدامها بإعادتها، وبعد ابتنائها، وغرم[٩] ما بين ذلك من مرمتها وإصلاحها، ثم قابلنا بذلك ما أخذنا من غلاتها،

---

(١) قرمد الشيء: طلاه بالقرمد وهو كل ما يطلى به للزينة كالزعفران والجص أو الخزف المطبوخ.
(٢) جمع آجرة، وهي ما يبنى به من الطين المشوي.
(٣) الحجر العظيم الصلب ج صخر وَصَخر وصخور وصخورة وصخرات.
(٤) النذالة وهي عدم المروءة.
(٥) بالفتح الدية ج أروش.
(٦) اليابس المتكسر.
(٧) المنافع.
(٨) بليت.
(٩) بالضم الغرامة وهي ما يلزم أداؤه من المال.

وارتفقنا[١] به من إكرائها، خرج على المسكن من الخُسْران، بقدر ما حصل للساكن من الربح. إلا أن الدراهم التي أخرجناها من النفقة كانت جملة، والتي أخذناها على جهة الغلّة جاءت مقطّعة[٢].

وهذا مع سوء القضاء، والإحواج إلى طول الاقتضاء، ومع بغض الساكن للمُسْكن وحب المُسْكن للساكن، لأنّ المسكن يحب صحّة بدن الساكن، ونفاق سوقه، إن كان تاجراً، وتحرك صناعته، إن كان صانعاً، ومحبة الساكن أن يشغل الله عنه المُسْكِنَ كيف شاء ـ إن شاء شغله بعينه[٣]، وإن شاء بزمانه[٤]، وإن شاء بحبس وإن شاء بموت.

ومدار مناه أن يُشغَل عنه. ثم لا يبالي كيف كان ذلك الشغل إلاَّ أنه كلما كان أشد كان أحبّ إليه، وكان أجدر أن يأمن، وأخلق لأن يسكن. وعلى أنه إن فترت سوقه، أو كسدت صناعته، ألحّ في طلب التخفيف من أصل الغلّة، والحطيطة[٥] مما حصل عليه من الأجرة. وعلى أنه إن أتاه الله بالأرباح في تجارته، والنفاق في صناعته، لم ير أن يزيد قيراطاً في ضريبته، ولا أن يعجل فلساً قبل وقته»[٦].

* * *

---

(١) انتفعنا به.

(٢) مجزّأة.

(٣) أي بذاته.

(٤) أي بأحوال زمانه ويمكن أن تكون الكلمة بزمانة وهي العاهة.

(٥) فعيلة بمعنى اسم لما يحط من الثمن (اللسان: حطط).

(٦) كتاب البخلاء للجاحظ.

أطيَبُ طعَـام وَأشعَـرُ بَـيْـت

لأبي الفرج الأصبهاني[١]

صنع عبد الملك بن مروان طعاماً فأكثر وأطاب ، ودعا إليه الناس فأكلوا. فقال بعضهم: ما أطيب هذا الطعام! ما نرى أن أحداً رأى أكثر منه ، ولا أكل أطيب منه. فقال أعرابي من ناحية القوم: أما أكثر فلا ، وأما أطيب فقد ـ والله ـ أكلت أطيب منه. وطفقوا يضحكون من قوله. فأشار إليه عبد الملك فأدني منه. فقال: ما أنت بمحق فيما تقول إلا أن تخبرني بما يَبينُ به صدقُكَ.

فقال نعم يا أمير المؤمنين! بينما أنا بهجر في ترب[٢] أحمرفي أقصى حجر إذ توفي أبي وترك كلاًّ وعيالاً ، وكان له نخل، فكانت فيه نخلة لم ينظر الناظرون إلى مثلها: كأنّ ثمرَها أخفافُ الرِّباع[٣] لم يُرَ ثمرٌ قطُّ أغلظَ ولا أصلبَ ، ولا أصغرَ نوىً ، ولا أحلى حلاوةً منها ، وكانت تطرقها أتان وحشيّة قد ألفتها تأوي الليل تحتها. فكانت تثبت رجليها في أصلها وترفـع يديهـا ، وتعطـو[٤] بفيهـا فـلا تتـرك فيهـا إلا النبـذ[٥] والمتفـرق

(١) مرت ترجمته في الجزء الأول.
(٢) في الأغاني (بَرَثٌ) وهو الأرض اللينة السهلة.
(٣) بكسر الراء جمع رُبع، بضم الراء وفتح الباء، وهو الفصيل ينتج في الربيع وهو أول النتاج شبه الثمر في نعومته ولينه بأخفاف (جمع خف) فصلان الإبل التي تولد في فصل الربيع وهي من أنعم أولاد الناقة جسماً وألينها لحماً.
(٤) تتناول.
(٥) أي القليل اليسير.

فأعظمني[١] ذلك ووقع مني كل موقع ، فانطلقت بقوسي وأسهمي وأنا أظن أني أرجع من ساعتي. فمكثت يوماً وليلاً لا أراها حتى كان السحر أقبلت فتهيَّأت لها فرشقتها[٢] فأصبتها وأجهزت[٣] عليها ، ثم عمدت إلى سرتها[٤] ، فأفريتها[٥] ، ثم عمدت إلى حطب جزل[٦] فجمعته إلى رضف[٧] ، وعمدت[٨] إلى زندي[٩] فقدحت[١٠] وأضرمت[١١] النار في ذلك الحطب ، وألقيت سرتها فيها ، وأدركني نوم السبات[١٢] فلم يوقظني إلا حر الشمس في ظهري فانطلقت إليها فكشفتها وألقيت ما عليه من قذى[١٣] أو سواد أو رماد ، ثم قلبت مثل الملاءة[١٤] البيضاء فألقيت عليها من رطب تلك النخلة المجزّعة[١٥] والمنصّفة[١٦] فسمعت لها أطيطاً[١٧] كتداعي عامر وغطفان. ثم أقبلت أتناول الشحمة واللحمة

---

(١) أي فأفزعني ذلك وعظم عليّ.
(٢) رميتها بابه نصر.
(٣) أجهز على الجريح شد عليه وأتم قتله.
(٤) التجويف الصغير المعهود في وسط البطن ج سرّات وسُرر.
(٥) في الأغاني: (فافتددتها) وأفريتها: قطعت وشققت وأصلحت.
(٦) الغليظ العظيم.
(٧) الحجارة المحماة واحدتها رضفة.
(٨) قصدت بابه ضرب.
(٩) العود الأعلى الذي يقتدح به النار، والزندة العود الأسفل الذي فيه الفرضة فإذا اجتمعا قيل الزندان ج زِناد وأزْنَد وأزناد.
(١٠) قدح بالزند أي حاول إخراج النار منه بابه فتح.
(١١) أضرم وضرم واستضرم النار أوقدها وأشعلها وألهبها.
(١٢) النوم العميق أو أوله.
(١٣) بالكسر التراب المدقق ج قُذِيّ وأقذاء.
(١٤) ثوب يلبس على الفخذين والريطة ذات لفقين ج مُلاء.
(١٥) صفة للرطب والمجزَّع والمجزِّع من الرطب ما بلغ النضج إلى نصفه.
(١٦) نصّف النخل احمرّ بعض بسره وبعضه اخضر.
(١٧) أي صوتاً.

فأضعها بين التمرتين وأهوي إلى فمي. أحلف أني ما أكلت طعاماً مثله قط.

فقال له عبد الملك: لقد أكلت طعاماً طيباً. فمن أنت؟ قال: أنا رجل جانبتني عنعنة[١] تميم وأسد، وكسكسة[٢] ربيعة، وحوشيّ[٣] أهل اليمن وإن كنت منهم. فقال: من أيهم أنت؟ قال: من أخوالك من عذرة. قال: أولئك فصحاء الناس. فهل لك علم بالشعر؟ قال: سلني عما بدا لك يا أمير المؤمنين! قال: أي بيت قالته العرب أمدح؟ قال: قول جرير:

ألستم خيرَ مَنْ ركبَ المطايا[٤] وأندى[٥] العالمين بطونَ راحِ

قال: وجرير في القوم، فرفع رأسه وتطاول لها، ثم قال: أيُّ بيتٍ قالته العرب أفخر؟ قال: قول جرير:

إذا غضبتْ عليكَ بنو تميمٍ حسبتَ الناسَ كلَّهُمُ غِضابا

قال: فتحرك، ثم قال له: فأيّ بيتٍ أهجى؟ قال: قول جرير:

فَغُضَّ الطَّرفَ إنكَ من نُمَيْرٍ فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

قال: فاستشرف[٦] لها جرير واهتز وطرب.

ثم قال له: فأيُّ بيتٍ قالته العربُ أحسن تشبيهاً؟ قال: قول جرير:

---

(١) عنعن أي لفظ في كلامه الهمزة كالعين.

(٢) الكسكسة: إلحاق كاف المؤنث سينا عند الوقف نحو بكس في بك وأكرمتكس في أكرمتك.

(٣) الحوشي الغريب.

(٤) جمع مطية وهي الدابة التي تركب ويستوي فيها المذكر والمؤنث فالبعير مطية والناقة مطية ويجمع أيضاً على مَطى.

(٥) أسم تفضيل يقال فلان أندى من فلان أي أكثر جوداً وخيراً.

(٦) انتصب.

سرى نحوهم ليلٌ كأنَّ نجومَه قنـاديـلُ فيهـنَّ الـذبـالُ[١] المُفَتَّـلُ

فقال جرير: جائزتي للعذري يا أمير المؤمنين! فقال عبد الملك: وله مثلها مِن بيت المال ولك جائزتك يا جرير! لا تنقص منها شيئاً. وكانت جائزة جرير أربعة آلاف درهم وتوابعها من الحملان[٢] والكسوة. فخرج العذري وفي يده اليمنى ثمانية آلاف درهم وفي اليسرى رزمة[٣] ثياب[٤].

* * *

(١) جمع ذبالة وهي الفتيلة شبه الجيش بليل والرماح كأنها بقناديل ذات الفتائل المفتلة أجودها وأقواها.

(٢) ما يحمل عليه من الدواب في الهبة خاصة.

(٣) بكسر الراء ما جمع من الثياب وغيرها وشد معاً، ج رزَم.

(٤) كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني.

كِتـابٌ ينـوبُ عَن كتـــائِب[1]

رسالة لابن العميد[2] إلى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة[3]

كتابي وأنا مترجح بين طمع فيك ، ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تُدِلّ[4] بسابق حرمة ، وتَمُتّ[5] بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضي محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث

---

(١) جمع كتيبة القطعة من الجيش أو الجماعة من الخيل.

(٢) هو الأستاذ الرئيس محمد بن الحسن المعروف بابن العميد وزير ركن الدولة ابن بويه. كان فارسي الأصل من أهل مدنية قم، نشأ على الأدب وثقف الكتابة ومارسها وتوسع في العلوم حتى لقب بالجاحظ الثاني، كان ربيعاً للأدب والشعر موسماً للأدباء والشعراء مجمعاً علمياً عامراً، سُلّمت رئاسته في الأدب والكتابة وشغف الناس بأدبه حتى قالوا: «بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد» إلا أن كتابته كتابة صناعة وتكلف وتأنق وزخرف لا روح فيها ولا حياة، وهي أشبه بالوشي والطراز منها بالأدب والكتابة ولكن تفوقه في هذه الصناعة وتصرفه في ضروب الرسائل مما لا يدفع. وذلك بتوسعه في فنون الكلام وطول ممارسته وبحكم منصبه وشغله، ولعل يمينه لم تخط أحسن من هذه الرسالة التي وجهها إلى ابن بلكا. قال الثعالبي في يتيمة الدهر: «قد أجمع أهل البصيرة في الترسل، على أن رسالته التي كتبها إلى ابن بلكا. . . عند استعصائه على ركن الدولة غرّة كلامه وواسطة عقده» توفي سنة ٣٦٠هـ.

(٣) أبو علي الحسن بن بويه بن فنّاخسرو الديلمي الملقب ركن الدولة كان ملكاً جليل المقدار عالي الهمة؛ وكان مولده تقديراً في سنة ٢٨٤هـ، وتوفي سنة ٣٦٦هـ.

(٤) أدلّ عليه إدلالاً وثق بمحبته فأفرط عليه واجترأ.

(٥) مت إلى فلان بقرابة وصل إليه وتوسل بابه نصر.

غـلول وخيانـة. وتتبعهمـا بآنـف خـلاف ومعصيـة ، وأدنى ذلك يُـحْبِطُ أعمالَكَ ، ويَمْحَقُ[١] كل ما يرعىٰ لك.

لا جرم أني وقفت بين ميل إليك ، وميل عليك ، أقدّم رجلاً لصدمك ، وأُؤخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يداً لاصطلامك[٢] واجتياحك ، وأثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك ، وأتوقف عن امتثال بعض المأمور فيك ضَنًّا بالنعمة عندك منافسة في الصنيعة لديك ، وتأميلاً لفيئتك[٣] وانصرافك ، ورجاء لمراجعتك وانعطافك ، فقد يعزب[٤] العقل ثم يؤوب ، ويغرب اللب ثم يثوب[٥] ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ، ويضاع الرأي ثم يستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو[٦] ، ويكدر الماء ثم يصفو ، وكل ضيقة إلى رَخاء[٧] ، وكل غمرة[٨] فإلى انجلاء[٩].

وكما أنك أتيت من إساءتك بما لم تحتسبه أولياؤك ، فلا بِدْعَ أن تأتي من إحسانك بما لم ترتقبه أعداؤك ، وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت ، واخترت ما اخترت فلا عجب أن تنتبه انتباهةً تبصر فيها قبح ما صنع وسوء ما آثرت ، وسأقيم على رسمي في الإبقاء والمماطلة

---

(١) يَمْحَقُ بابه فتح.
(٢) الاستئصال وكذلك الاجتياح.
(٣) أي لرجوعك.
(٤) عزب كنصر وضرب عزوباً بعد وغاب وخفي.
(٥) يرجع.
(٦) صحا السكران ذهب سكره.
(٧) بالفتح سعة العيش.
(٨) غمرة الشيء شدته ومزدحمه ج غمرات وغمار وغُمَر.
(٩) الانكشاف.

ما صلح ، وعلى الإستيناء[١] والمطاولة[٢] ما أمكن ، طمعاً في إنابتك ، وتحكيماً لحسن الظن بك ، فلست أعدم فيما أظاهره من أعذار ، وأرادفه من إنذار ، احتجاجاً عليك واستدراجاً[٣] لك . فإن يشأ الله يرشدك ، ويأخذ بك إلى حظك ، ويسددك[٤] فإنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير .

وزعمت أنك في طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها ، وإذا كنت كذلك فقد عرفت حاليها ، وحلبت شطريها[٥] ، فنشدتك الله لما[٦] صدقت عما سألتك ، كيف وجدت ما زلت عنه؟ وكيف تجد ما صرت إليه؟ ألم تكن من الأول في ظل ظليل ، ونسيم[٧] عليل ، وريح بليل[٨] ، وهواء غَذيّ[٩] ، وماء رويّ[١٠] ومهاد وطيّ[١١] ، وكن[١٢] كنين[١٣] ، ومكان مكين ، وحصن حصين ، يقيك المتالف[١٤] ، ويؤمنك المخاوف ،

---

(١) التمهل .

(٢) طاوله مطاولة ماطله .

(٣) استدرجه إلى كذا قربه إليه رقاه من درجة إلى درجة .

(٤) أي يرشدك إلى طريق الصواب .

(٥) الجزء والنصف ج أشطر وشطور ويقال للناقة في ضرعها شطران قادمان وآخران وكل خلفين شطر .

(٦) قد تكون حرف استثناء بمعنى إلا فتدخل على الجملة الاسمية نحو إن كل نفس لما عليها حافظ وعلى الماضي لفظاً لا معنى نحو أنشدك الله لما فعلت أي ما أسألك إلا فعلك .

(٧) الريح اللينة لا تحرك شجراً ولا تعفي أثراً ج نِسام .

(٨) الريح البادرة مع ندى .

(٩) الطّيب .

(١٠) الماء الغزير المروي .

(١١) اللين الناعم .

(١٢) البيت ج أكنان وأكنّة .

(١٣) المستور .

(١٤) جمع متلفة وهي سبب التلف والهلاك .

ويكنفك[١] من نوائب الزمان ، ويحفظك من طوارق[٢] الحدثان[٣] ؛ عززت به بعد الذلة ، وكثرت بعد القلة ، وارتفعت بعد الضعة[٤] ، وأيسرت[٥] بعد العسرة ، وأثريت[٦] بعد المتربة[٧] واتسعت بعد الضيقة ، وظفرت بالولايات ، وخفقت[٨] فوقك الرايات[٩] ، ووطىء عقبك الرجال ، وتعلقت بك الآمال ، وصرت تكاثر[١٠] ويكاثر بك ، وتشير ويشار إليك ، ويذكر على المنابر اسمك ، وفي المحاضر ذكرك .

ففيم الآن أنت من الأمر؟ وما العوض عما عدوت والخلف[١١] مما وصفت؟ وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك ، ونفضت منها كفك وغمست في خلافها يدك؟ وما الذي أظلك بعد انحسار[١٢] ظلها عنك؟ أظل ذو ثلاث شعب[١٣] لا ظليل ولا يغني من اللهب؟ قل : نعم كذلك! فهو ـ والله ـ أكثف ظلالك في العاجلة ، وأروحها في الآجلة ، إن أقمت على المحايدة[١٤] والعنود[١٥] ، ووقفت على

(١) كنف الشيء صانه وحفظه وحاطه بابه نصر .
(٢) جمع طارقة وهي الداهية .
(٣) حدثان الدهر وحدثانه نوائبه .
(٤) الذلة .
(٥) أي صرت ذا يسار وغنى .
(٦) أي كثر مالك .
(٧) أي الفاقة والفقر .
(٨) اضطربت .
(٩) جمع راية علم الجيش ويجمع أيضاً على راي .
(١٠) كاثره غالبه وفاخره بكثرة المال والعداد .
(١١) البدل والعوض .
(١٢) الانكشاف .
(١٣) جمع شعبة الطائفة من الشيء .
(١٤) المجانبة .
(١٥) عند عنوداً عن الطريق أو القصد مال وعدل بابه ضرب ونصر وسمع وكرم وأيضاً =

المشاقة[١] والجحود[٢].

تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستنكرها ، والمس جسدك ، وانظر هل يحس؟ وأحبس عرقك هل ينبض[٣]؟ وفتش ماحنا[٤] عليك هل تجد في عرضها قلبك ، وهل حَلِيَ[٥] بصدرك أن تظفر بفوت سريح[٦] أو موت مريح؟ ثم قس غائب أمرك بشاهده وآخر شأنك بأوله![٧].

* * *

= عند الرجل خالف الحق وهو عارف به.

(١) المخالفة والمعاداة.

(٢) الإنكار مع العلم.

(٣) نبض العرق نبضاً ونبضاناً تحرك وضرب بابه ضرب.

(٤) أي مال وانعطف.

(٥) طاب ولذّ بابه سمع.

(٦) المعجّل.

(٧) يتيمة الدهر لأبي منصور الثعالبي. قال المؤلف: «بلغني عن ابن بلكا وكان آدب أمثاله أنه كان يقول والله ما كانت لي عند قراءة هذا الفصل إلا كما اشار إليه الأستاذ الرئيس (ابن العميد): ولقد ناب كتابه عن الكتائب في عرك أديمي واستصلاحي وردي إلى طاعة صاحبه» (يتيمة الدهر ٣/ ١٦٧ـ١٦٨)

البَحــر

رسالة للصاحب بن عبَّاد [١] إلى ابن عميد صدرت عن كتابه إليه في وصف البحر .

وصل كتاب الأستاذ الرئيس صادراً عن شَطّ [٢] البحر بوصف ما شاهد من عجائبه ، وعاين من مراكبه ، ورآه من طاعة آلاته للرياح كيف

---

(١) ٣٢٦ – ٣٨٥هـ هو أبو القاسم إسماعيل بن عباد ، ولد بطالقان من أعمال قزوين وصحب الأستاذ الرئيس ابن العميد شاباً فاشتهر بالصاحب . كان وزيراً لمؤيد الدولة ابن بويه ، ثم لأخيه فخر الدولة فكان ذا الوزارتين ، وصاحب الدولتين (العلم والإمارة) ، وحائز الحسنيين (الأدب والرئاسة) وهو رمز من رموز الأدب الخالدة ، وكان سوقاً للأدب والشعر ، يجلب إليها كل طريف ، ويرحل إليه كل أديب ، ويقصده كل شاعر . قال الثعالبي : «احتفَّ به من نجوم الأرض وأفراد العصر وأبناء الفضل وفرسان الشعر من يربي عددهم على شعراء الرشيد» .

أما كتابته فعلى أثر ابن العميد بزيادة في الحلية اللفظية ، وولع بالسجع والجناس حتى قيل فيه : «لو رأى سجعة تنحل بموقعها عروة الملك ويضطرب بها حبل الدولة لما هان عليه أن يتخلى عنها» . وهذه الملاحظة وإن كانت شديدة لكنها صادقة في أكثر كتاب ذلك العصر إلى عصور بعده .

ولعل هذا الكتاب الذي وقع اختيارنا عليه أقل رسائله تكلفاً وإغراقاً في الجناس والبديع وأكثرها خفة وسلامة وجمالاً . قال الثعالبي في يتيمه الدهر ج/٣ : كان أبو بكر الخوارزمي يحفظ هذا الكتاب وكثيراً ما كان يقرؤه ويعجب السامعون من فصاحته ولم أره يحفظ من الرسائل غيره .

(٢) الشاطئ ج شطوط وشُطَّان .

أرادها واستجابة أدواها [١] لها متى نادها ، وركوب الناس أثباجها [٢] ، والخوف بمرأى ومسمع ، والمنون [٣] بمرقب ومطلع ، والدهر بين أخذ وترك ، والأرواح بين نجاة وهلك ، إذا فكروا في المكاسب الخطيرة [٤] هان عليهم الخطر ، وإذا لاحت لهم غُرر [٥] المطالب الكثيرة حُبِّب إليهم الغَرر [٦] .

وعرفت ما قاله من تمنيه كوني عند ذلك بحضرته ، وحصولي على مساعدته ، ومن رأى بحر الأستاذ كيف يزخر [٧] بالفضل ، وتتلاطم فيه أمواج الأدب والعلم ، لم يعتب [٨] على الدهر فيما يفيته من منظر البحر ، ولا فضيلة له عندي أعظم من إكبار الأستاذ لأحواله ، واستعظامه لأهواله ، كما لا شيء أبلغ في مفاخرة ، وأنفس في جواهره ، من وصف الأستاذ له ، فإني قرأت منه الماء السلسال [٩] لا الزلزال [١٠] ، والسحر [١١] الحرام لا الحلال ، وقد علم أنه كتب ولَمَا أخطر بفكره سعة صدره ، فلو فعل ذلك لرأى البحر وَشَلاً [١٢] لا يفضل من

---

(١) جمع أداة وهي الآلة .

(٢) جمع ثبج وهو من كل شيء أعلاه يقال «تسنمت الحمر أثباج الآكام» أي أعاليها ويجمع أيضاً على ثبوج .

(٣) الموت (مؤنثة وقد تذكر) .

(٤) الرفيعة القدر .

(٥) بالضم جمع غرة وهي البياض في جبهة الفرس والغرة من كل شي أوله ومعظمه وطلعته والغرة من القوم شريفهم .

(٦) بالفتح التعريض للهلاك .

(٧) زخر كفتح زخراً أو زخوراً وتزخاراً البحر طمى وتملا .

(٨) عتب كضرب ونصر عتباً وعتاباً وعِتِّيـــبى فلاناً لامه .

(٩) الماء العذب .

(١٠) المتلاطم المصوت كماء البحر .

(١١) الممنوع على غيره من أن يقلده أو يحكيه وإن كان حلالاً .

(١٢) بفتحتين الماء القليل يتحلب من صخر أو جبل ج أو شال .

التبرُّض[١] ، وثَمَداً[٢] لا يكثر عن الترشف[٣]:

وكم من جبالٍ جبتَ تشهد أنك الـ ـجبالُ وبحر شاهد أنك البحرُ[٤]

* * *

(١) تبرض الشيء أخذه قليلاً قليلاً.

(٢) بفتح الميم وسكونها الماء القليل يتجمع في الشتاء وينضب في الصيف أو الحفرة يجتمع فيها ماء المطر، ج ثماد.

(٣) ترشف الماء بالغ في مصه.

(٤) يتيمة الدهر للثعالبي.

كيف تتفاضل الكلِمَات بَعضها عَلى بَعض

لعبد القاهر الجرجاني[١]

هل يقع في وهم وإن جهد أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكانٍ تقعان فيه من التأليف والنظم ، بأكثر من أن تكون هذه مألوفةً مستعملةً ، وتلك غريبة وحشية ، أو أن تكون حروفُ هذه أخفَّ ، وامتزاجها أحسن ، ومما يَكُدُّ[٢] اللسانَ أبعدَ ، وهل تجد أحداً يقول: «هذه اللفظة فصيحة» إلا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جارتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها ، وهل قالوا: «لفظة

(١) عبد القاهر الجرجاني المتوفى ٤٧١هـ، من كبار أئمة العربية، أخذها عن أبي الحسين الفارسي النحوي ابن أخت أبي علي الفارسي، كان يُرحل إليه من الآفاق، ولقب بالنحوي وهو أول من أسسّ قواعد البلاغة، كان شافعياً اشعرياً، صاحب تدين وورع، أهم كتبه المطبوعة «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغه» وبهما خلد اسمه في عالم الأدب، و«دلائل الإعجاز» صحيفة من الأدب العالي، لم يكتب البيان ولا النحو ولا الفقه بمثل هذا اللسان العذب، إذا قرأت فصلاً من كتاب «دلائل الإعجاز» أو «أسرار البلاغة» شعرت كأنك في درس أو تسمع حواراً (مقتبس من كتاب «كنوز الأجداد» للعلامة محمد كرد علي) وقد قدمنا نموذجه على بديع الزمان الهمذاني وأبي القاسم الحريري مع أنّ وفاته تأخرت عن وفاة بديع الزمان لأنه نمط من الإنشاء تختلف عن نمط إنشائهما اختلافاً كبيراً، وهو أشبه بالأولين منه بالمتأخرين.

(٢) يكدّ: من (نصر) كدًّا: أتعبه.

متمكنة ومقبولة ، وفي خلافه ، «قلقة ونابية[١] ومستكرهة ، إلاّ وغرضهم أن يعبّروا بالتمكن عن حسن الاتّفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما ، وبالقلق والنُّبُـوِّ عن سوء التلاءم ، وأن الأُولى لم تَلِقْ بالثانية في معناها ، وأن السابقةَ لم تصلح أن تكون لِفْقاً للتالية في مؤدّاها ، وهل تشك إذا فكّرت في قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى[٢] وَغِيضَ[٣] ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤] فتجلَّى لك منها الإعجاز ، وبهرك الذي ترى وتسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة ، والفضيلة القاهرة ، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وأن لم يعرض لها الحُسْن والشرف ، إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة ، وهكذا إلى أن تستقريها إلى آخرها ، وأنّ الفضل تَناتَجَ ما بينها ، وحصل من مجموعها!!

إن شككت فتأَمّل: هل ترى لفظةً منها بحيث لو أُخِذَتْ من بين أخواتها وأُفْرِدَتْ ، لأدّتْ من الفصاحة ما تُؤدّيه ، وهي في مكانها من الآية؟ قل: «ابلعي» واعتبرها وحدَها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها ، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها ، وكيف بالشك في ذلك ، ومعلوم أنّ مبدأ العظمة في أن نُوديت الأرضُ ، ثم أُمرت ، ثم في أن كان النداءُ بـ «يا» دون «أيّ» نحو يأيتها الأرضُ ، ثم إضافة «الماء» إلى الكاف دون أن يقال: «ابلعي الماء» ، ثم أن أُتبعَ نداءُ الأرض وأمرُها بما هو من شأنها ، نداءَ السماء وأمرَها كذلك بما يخصّها ، ثم أن قيل: «وغِيضَ الماءُ» فجاء الفعل على صيغة «فُعِلَ» الدّالة على أنّه لم يَغِض إلا بأمرآمر وقُدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: «وقُضي الأمرُ» ثم ذِكْرُ ما هو فائدة هذه

---

(١) نبوًا من (نصر) (صورته) قبحت فلم تقبلها العين.

(٢) أقلعي: أقلع (عن كذا) كفّ عنه وتركه.

(٣) غيض: غاض يغيض غيضاً: لازم ومتعد معاً. (الماء ونحوه) نقص أو غار أو نضب. أو نقصه.

الأمور ، وهو «استَوَتْ على الجُوديّ» ثم إضمار «السفينة» قبل الذكر ، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ، ثم مقابلة «قيل» في الخاتمة بـ «قيل» في الفاتحة ، أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعةً ، وتحضرك عند تصوّرها هيبةً ، تحيط بالنفس من أقطارها تعلقاً باللفظ ، من حيث هو صوت مسموعٌ وحروف تتوالى في النطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتّساق[1] العجيب.

فقد اتضح إذاً اتضاحاً لا يدع للشك مجالاً أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة ، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها ، أو ما أشبه ذلك ، مما لا تعلق له بصريح اللفظ. ومما يشهد لذلك أنّك ترى الكلمةَ تروقُك وتُؤنِسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر ، كلفظ الأخداع في بيت الحماسة :

تَلَفَّتُّ نحو الحيّ حتى وَجَدْتُني وجِعْتُ من الإصغاءِ ليتاً[2] وأَخْدَعا[3]

وبيت البحتري :

وإني وإن بَلَّغْتَني شَرَفَ الغِنى وأَعْتَقْتَ من رِقِّ المَطامِعِ أَخْدَعي

فإنّ لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن ، ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام :

يا دَهْرُ قَوِّم مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ أَضْجَجْتَ هذا الأنامَ من خُرُقِكْ[4]

فتجد لها من الثِّقْلِ على النفس ومن التنغيصِ والتكدير أضعافَ ما وجدت هناك من الرَّوْحِ والخِفَّة والإيناس والبهجة. ومن أعجب ذلك

(١) اتسق أمره: اتساقاً، انتظم واستوى.

(٢) الليت: صفحة العنق.

(٣) الأخدعان: عرقان في جانبيه.

(٤) الخرق: بالضمّ، العنف، وتقويم الأخدعين: إزالة الكبر والعنف.

لفظة «الشيء» فإنك تراها مقبولةً حسنةً في موضع ، وضعيفةً مستكرهةً في موضع ، وإن أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي :

ومِن مالِيءِ عَيْنَيْهِ من شَيْءِ غَيْرِهِ إذا راحَ نَحْوَ الجَمْرَةِ[1] البيضُ كالدُّمَى

وإلى قول أبي حية :

إذا ما تَقاضَى المرءَ يومٌ وليلةٌ تَقاضاهُ شَيْءٌ لا يَمَلُّ التَّقاضِيا

فإنّك تعرف حُسْنها ومكانها من القبول ، ثم انظر إليها في بيت المتنبي :

لَوِ الفَلَكُ الدوار أَبْغَضْتَ سَعْيَهُ لَعَوَّقَهُ شَيْءٌ عَنِ الدَّوَرانِ

فإنَّك تراها تقلُّ وتَضْؤُلُ ، بحسب نُبْلها وحُسْنها فيما تقدم .

وهذا بابٌ واسعٌ فإنك تجد متى شئتَ الرجلين قد استعملا كَلِماً بأعيانها ، ثم ترى هذا قد قرع السماك[2] ، وترى ذاك قد لَصِق بالحضيض[3] ، فلو كانت الكلمةُ إذا حَسُنَتْ حَسُنَتْ من حيث هي لفظ وإذا استحقت المزيّةُ والشرفُ استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السببَ في ذلك حالٌ لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم . لَمَا اختلف بها الحالُ ، ولكانت إمّا أن تَحْسُنَ أبداً ، أولا تَحْسُن أبداً ، ولم تر قولاً يضطرب على قائله حتى لا يدري ، كيف يُعبِّر وكيف يورد ويُصْدِر ،

(١) الجمرةُ: القبيلة يجتمع عددها، ثم قيل لمكان اجتماعها.

(٢) السّماك: ج سُمُكٌ، ما سمك به الشيء أي رُفع، والسماكان: كوكبان في السماء، يقال لأحدهما: السماك الرامح، وللآخر: السماك الأعزل.

(٣) الحضيض: ج أحضّة وحُضُضٌ: القرار من الأرض عند أسفل الجبل.

كهذا القول ، بل إن أردت الحقَّ فإنه من جنس الشيء يُجْرِي به الرجل لسانَه ، ويُطْلِقه ، فإذا فَتَّشَ نَفْسَه وجدها تعلم بُطْلانَهُ ، وتنطوي على خلافه ، ذاك لأنه مما لا يقومُ بالحقيقة في اعتقاد ، ولا يكون له صورة في فُؤاد[1] .

* * *

(١) دلائل الإعجاز

المقَـامَـة المضيريَّـة

لبديع الزمان الهمذاني[(١)]

حدثنا عيسى بن هشام قال: كنت بالبصرة ومعي أبو الفتح الاسكندري رجل الفصاحة[(٢)] يدعوها فتجيبه، والبلاغة يأمرها فتطيعه، وحضرنا معه دعوة بعض التُّجّار، فقُدّمت إلينا مَضيرَةٌ[(٣)]، تُثْني على الحضارة،

---

(١) هو بديع زمانه أبو الفضل أحمد بن الحسين، وُلد بهمذان ونشأ بها وتعلم العلم باللغتين الفارسية والعربية، ورحل إلى الصاحب بن عباد فاستفاد منه، وقصد جرجان وأقام في أكناف الإسماعيلية وفي سنة ٣٨٢هـ يمم نيسابور فتجلت فيها عبقريته وأملى بها أربعمئة مقامة؛ ثم تصدى لمناظرة أبي بكر الخوارزمي وهو حامل لواء الأدب في عصره فظهر عليه وطار بذلك صيته في الآفاق ثم ألقى عصاه بهرات وعاش بها إلى سنة ٣٩٨هـ كان البديع نادرة في الذكاء وسرعة الخاطر، وحضور البديهة، وقوة الحفظ. كان يأتي في الإنشاء ببدائع ونوادر وهو الذي سبق إلى انشاء المقامات وقد اعترف بتقدمه وسبقه الحريري في مقدمة مقاماته.

نثر البديع من قبيل الشعر المنثور أقل تكلفاً من متأخريه ومن كثير من معاصريه ومتقدميه يجمع بين متانة اللفظ ورشاقة المعنى، وجمال الأدب، ودقة التخيل وهزله، ودعابته تفوق دعابة الحريري وأقل منها تكلفاً.

(٢) أي صاحبها الفرد ليس في الرجال من يساويه يقال: «فلان رجل الحرب» إذا كان فريداً في القيام بأعبائها لا يباريه بها أحد وكذا رجل البلاغة.

(٣) لحم يطبخ باللبن المضير وهو الحامض.

وتَتَرَجْرَجُ[١] في الغضارة[٢] ، وتُؤذن[٣] بالسلامةِ ، وتشهدُ لمعاوية رحمه الله بالإمامةِ[٤] ، في قصعةٍ يَزلُّ عنها الطَّرْف ، ويموج فيها الظرف[٥]. فلما أخذت من الخوان[٦] مكانها ومن القلوب أوطانها قام أبو الفتح الإسكندري يلعنها وصاحبها ، ويمقتها[٧] وآكلها ، ويثلبها[٨] وطابخها ، وطنّنّاه يمزح فإذا الأمر بالضد ، وإذا المزاح عينُ الجدّ ، وتنحّى عن الخوان ، وترك مساعدة الإخوان ، ورفعناها فارتفعت معها القلوب ، وسافرت خلفها العيون ، وتحلّبت[٩] لها الأفواه ، وتلمّظت[١٠] لها الشفاه ، واتقدت لها الأكباد. ومضى في أثرها الفؤاد. ولكنّا ساعدناه على هجرها ، وسألناه عن أمرها ، فقال: قصتي معها أطول من مصيبتي فيها ، ولو حدثتكم بها لم آمن المقتَ ، وإضاعة الوقتِ؛ قلنا: هات!

قال: دعاني بعض التجّار إلى مضيرة وأنا ببغداد ولزمني ملازمة

---

(١) تتحرك بشدة.
(٢) القصعة الكبيرة ج غضائر.
(٣) أي تشعر بالسلامة من يأكل منها لأنها لطيبها مستساغة سهلة الهضم لا يخشى آكلها من ضرر البطنة وإن بالغ في الالتهام.
(٤) لأن سيدنا معاوية (رضي الله تعالى عنه) كان معروفاً في عصره بحسن الذوق وطيب الطعام وتنويعه.
(٥) حسن الهيئة وبراعة اللسان فيما تسر الأنفس باستماعه ذلك أصله والمراد هنا مطلق الحسن والبهاء.
(٦) بالضم والكسر ما يوضع عليه الطعام ليؤكل ج أخونة وخُون.
(٧) أي يبغض أشد البغض بابه نصر اراد من المقت الكلام الدال عليه وإلا فهو فعل نفسي.
(٨) ثلبه أي عابه ولامه بابه ضرب.
(٩) أي سال ريقها والفم يتحلب عند رؤية شيء من المطعم تميل النفس إلى تناوله بل عند تذكره كذلك.
(١٠) التلمُّظ إخراج اللسان بعد الأكل والشرب ليمسح به الشفتان.

الغريم[١] والكلب لأصحاب الرقيم[٢] ، إلى أن أجبته إليها ، وقمنا فجعل طول الطريق يثني على زوجته ، ويفدّيها[٣] بمهجته[٤] ، ويصف حِذْقَها[٥] في صناعتها ، وتأنّقها[٦] في طبخها ، ويقول: يا مولاي! لو رأيتها ، والخرقةُ في وسطها ، وهي تدور في الدُّور ، من التنوّر إلى القدور ، ومن القدور إلى التنّور ، تنفث[٧] بفيها النار ، وتدق بيدها الأبزار[٨] ، ولو رأيت الدخان وقد غَبَّرَ[٩] في ذلك الوجه الجميل ، وأثر في ذلك الخدّ الصقيل[١٠] ، رأيت منظراً تحار فيه العيون ، وأنا أعشقها لأنها تعشقني ، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته[١١] ، وأن يُسعَد بظعينته[١٢] ، ولا سيّما إذا كانت من طينته ، وهي ابنة عمّي لِحًّا[١٣] ، طينتها طينتي ، ومدينتها مدينتي ، وعمومتها عمومتي ، وأرومتها[١٤] أرومتي ، لكنها أوسع منّي خُلقاً ، وأحسن خَلقاً ،

(١) رب الدين ج غرماء وغرّام.
(٢) أهل الكهف وقصتهم معروفة في القرآن الكريم وكلبهم معهم لا يفارقهم.
(٣) أي قال لها: جُعِلْتُ فداكِ.
(٤) دم القلب، الروح ج مُهج ومهجات.
(٥) مهارتها.
(٦) التأنق في العمل الإتيان به على أحسن وجوهه.
(٧) تنفخ بابه ضرب ونصر.
(٨) جمع بزر بالكسر التابل وهو ما يوضع في الطعام لتطييبه كالفلفل والقرنفل ونحوهما ج أبزار وأبازير.
(٩) لطّخ بالغبار.
(١٠) المجلوّ كالسيف الذي جُلي حتى ظهر بريقه ولمعانه ويروى الأسيل بدل الصقيل وأسل الخد ككرم إسالة لان وطال.
(١١) الزوجة ج حلائل.
(١٢) المرأة ما دامت في هودجها أراد منها الزوجة ج ظعائن.
(١٣) مصدر لحّت القرابة بيننا لحًّا إذا التصقت والتحمت ثم قيل هو ابن عمّي لحًّا أي ملتصقاً أي ابن عم أقرب أخ للأب.
(١٤) الأصل أي أصولها هي أصوله والفقرات كلها تأكيد لمعنى لحًّا.

وصدعني[١] بصفات زوجته ، حتى انتهينا إلى محلّته ، ثم قال: يا مولاي! ترى هذه المحلّة هي أشرف محالّ بغداد يتنافس الأخيار في نزولها ، ويتغاير الكبار في حلولها ، ثم لا يسكنها غير التجار ، وإنما المرء بالجار ، وداري في السطة من قلادتها[٢] ، والنقطة من دائرتها ، كم تقدّر يا مولاي! أُنفق على كُلِّ دار منها ، قله تخميناً ، إن لم تعرفه يقيناً؛ قلت: الكثير ، فقال: يا سبحان الله! ما أكبر هذا الغلط! تقول الكثير فقط ، وتنفّس الصُّعَداء[٣] ، وقال: سبحان من يعلم الأشياء! وانتهينا إلى باب داره ، فقال: هذه داري كم تقدّر يا مولاي أنفقتُ على هذه الطاقة[٤] أنفقتُ والله عليها فوق الطاقة ، ووراء الفاقة ، كيف ترى صنعتها وشكلها؟ أرأيت بالله مثلها ، انظر إلى دقائق الصنعة فيها ، وتأمّل حسن تعريجها[٥] ، فكأنما خطّ بالبركار[٦] ، وانظر إلى حذق النجار ، في صنعة هذا الباب ، اتَّخَذَهُ مِنْ كَمْ؟ قل: ومن أين أعلم ، هو ساج[٧] من قطعة واحدة لا مأروض[٨] ولا عفِن[٩] ، إذا حرّكَ أنّ[١٠] ، وإذا نُقر

(١) صدع بالحق تكلم به جهاراً بابه فتح.

(٢) ما جعل في العنق من الحلي ج قلائد وقلاد جعل بيوت المحلّة كجواهر القلادة وبيته في مكان الوسط من تلك القلادة وواسطة القلادة هي أعظم جوهر فيها والسطة: الوسط.

(٣) على وزن العلماء التنفس الطويل من هم أو تعب.

(٤) ما عطف من الأبنية أي جعل كالقوس من قنطرة ونافذة وما أشبه ذلك والطاقة في الجملة اللاحقة بمعنى الوسع والاستطاعة.

(٥) هو الميل والانحناء على نسب محفوظة يشكل به البنيان للزينة فيما تكون زينته به.

(٦) آلة لتحديد الدوائر.

(٧) شجر عظيم صلب الخشب.

(٨) الخشب الذي أكلته الأرضة.

(٩) الذي فسد من رطوبة أصابته.

(١٠) أي كان له أنين كأنين المريض بابه ضرب.

طنَّ[١] ، من اتّخذه يا سيدي اتخذه أبو إسحاق بن محمد البصريّ وهو رجل نظيف الأثواب ، بصيرٌ بصنعة الأبواب ، خفيفُ اليد في العمل ، لله درّ ذلك الرجل ، بحياتي لا استعنتَ إلا به على مثله. وهذه الحَلَقَة تراها اشتريتها في سوق الطرائف[٢] ، من عمران الطرائفي بثلاثة دنانير معزّية[٣] ، وكم فيها يا سيدي من الشبه[٤] ، فيها ستة أرطال ، وهي تدور بلولب[٥] في الباب ، بالله دوّرها ، ثم أنقُرها وأبصرها ، وبحياتي عليك لا اشتريت الحَلَقَ إلا منه فليس يبيع إلا الأعلاق[٦] ثم قرع الباب ودخلنا الدهليز وقال: عمّركِ اللهُ يا دار ، ولا خرّبكَ ياجدار ، فما أمتنَ حيطانَكِ ، وأوثقَ بنيانَكِ ، وأقوى أساسكِ ، تأمّل بالله معارجَها[٧] ، وتبين دواخلها وخوارجها ، وسلني كيف حصّلتها ، وكم حيلة احتلتها ، حتى عقدتها. كان لي جار يكنى أبا سليمان ، يسكن هذه المحلّة ، وله من المال مالا يسعه الخزن ، ومن الصامت[٨] ما لايحصره الوزن. مات رحمه الله وخلّف خلفاً أتلفه بين الخمر والزمر[٩] ، ومزّقه بين النرد[١٠] ، والقمر[١١] ، وأشفقت أن يسوقه قائد الاضطرار ، إلى بيع الدار ، فيبيعها في أثناء الضجر ، أو يجعلها عرضة للخطر ، ثم أراها ، وقد فاتني

---

(١) أي صوّت وسمع له طنين.
(٢) جمع طريفة وهي النادر المستحسن.
(٣) نسبة إلى المعز لدين الله.
(٤) النحاس الأصفر.
(٥) آلة من خشب أو حديد ذات محور ذي دوائر ناتئة.
(٦) جمع علق بالكسر وهو الشيء النفيس.
(٧) جمع معرج وهو السلّم ويجمع أيضاً على معاريج.
(٨) هو المال من الذهب والفضة ونحوهما من المعادن والجواهر في مقابلة الناطق وهي الأموال من الحيوان كالإبل والبقر والغنم ونحوها.
(٩) الصوت والغناء.
(١٠) لعبة الطاولة.
(١١) مصدر قمره كضرب إذا غلبه في القمار.

شراها ، فأتقطّع عليها حسراتٍ ، إلى يوم الممات ، فعمدت إلى أثواب لا تنضّ[١] تجارتها ، فحملتها إليه ، وعرضتها عليه ، وساومته على أن يشتريها نسيّة[٢] ، والمدبر[٣] يحب النسيئة عطيّة ، والمتخلّف[٤] يعتدها هَدِيّة. وسألته وثيقة[٥] بأصل المال ففعل وعقدها لي ، ثم تغافلت عن اقتضائه حتى كادت حاشية حاله ترق ، فأتيته فاقتضيته ، واستمهلني فأنظرته ، والتمس غيرها من الثياب فأحضرته ، وسألته أن يجعل داره رهينة لديّ ، ووثيقة[٦] في يديّ ، ففعل ثم درّجته[٧] بالمعاملات إلى بيعها حتى حصلت لي بجد صاعد ، وبخت[٨] مساعدٍ ، وقوة ساعد[٩] ، ورب ساع[١٠] لِقاعد ، وأنا بحمد الله مجدود[١١] ، وفي مثل هذه الأحوال محمود ، وحسبك يا مولاي اني كنت منذ ليال نائماً في البيت مع مَنْ فيه إذا قُرِع علينا الباب ، فقلت: من الطارق[١٢] المنتاب[١٣]؟ فإذا

(١) مأخوذ من قولهم ما نض بيدي منه شيء أي ما حصل والمراد أن تجارتها تكون كاسدة غير نافقة.

(٢) أي بتأجيل الثمن.

(٣) الذي أدبر عن السعادة.

(٤) المتأخر عن الناس في حسن الحال.

(٥) الصك الذي يكتب فيه الدين ج وثائق.

(٦) الوثيقة هنا بمعنى ما تكون به الثقة في قضاء الدين.

(٧) درّجه إلى كذا أدناه منه بالتدريج.

(٨) معاونة القدر لا كسب للإنسان فيها.

(٩) ما بين المرفق والكف ج سواعد.

(١٠) من كلام سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه في تهوين الدنيا أي قد يسعى المرء في كسب ولا ينتفع به هو وإنما يتركه فينتفع به غيره وهو قاعد لم يكسبه بسعيه.

(١١) أي ذو جد وحظّ.

(١٢) الآتي ليلاً بابه نصر.

(١٣) الذي يأتيك مرة بعد أخرى كأنه جعل إتيانه نوبا ثم شاع فيمن يأتي وقت لا يأتي الناس فكأنه لم يطرق بابك إلا بعد ما طرق أبواباً فَرْدً فانتهت نوبة الطرق إلى =

امرأة معها عقد لآل ، في جلدة ماء ورقّة آل[١] تعرضه للبيع ، فأخذته منهاإخذة خلس[٢] ، واشتريته بثمن بخس ، وسيكون له نفع ظاهر ، وربح وافر ، بعون الله تعالى ودولتك .

وإنما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة جَدّي في التجارة ، والسعادة تنبط[٣] الماء من الحجارة ، الله أكبر! لا ينبئك أصدق من نفسك ، ولا أقرب من أمسك .

اشتريت هذا الحصير في المناداة[٤] ، وقد أُخرج من دور آل الفرات[٥] ، وقت المصادرات[٦] ، وزمن الغارات ، وكنت أطلب مثله منذ الزمن الأطول فلا أجد ، والدهر حبلى[٧] ليس يُدرى ما يلد . ثمّ اتفق أني حضرت باب الطاق ، وهذا يُعرض في الأسواق ، فوزنت فيه كذا وكذا ديناراً ، تأمّل بالله دقته ولينه وصنعته ولونه فهو عظيم القدر ، لا يقع مثله إلا في الندر[٨] ، وإن كنت سمعت بأبي عمران الحصيري فهو عمله ، وله ابن يخلفه الآن في حانوته لا يوجد أعلاق[٩] الحُصُر إلاّ عنده .

= بابك .

(١) السراب أي هذه اللآلىء هي كالماء صفاء والسراب رقة .

(٢) خلس كضرب خَلْساً وخلِّيسى الشيء سلبه بمخاتلة وعاجلاً .

(٣) أنبط الماء أخرجها .

(٤) البيع بالمزاد وهو أن ينادى على شيء ويقومه أحد ثم يزيد عليه ثان وثالث حتى يشتريه أحد بثمنٍ عالٍ .

(٥) علي بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات وأخوه أبو العباس أحمد بن محمد بن الفرات وأخوهما أبو الخطاب جعفر بن محمد كان أولهم وزيراً للمقتدر بالله بن المعتضد العباس ثم نكبه وصادره على جميع أمواله في سنة ٣٠٢ من الهجرة .

(٦) يقال صودر فلان العامل على مال يؤديه أي فورق على مالٍ ضمنه .

(٧) الحبلى الحامل ج حبالى وحبليات وهو مثل يضرب لما يحصل من غير ترقب وعلم سابق .

(٨) مصدر ندر الشيء كنصر ندراً وندوراً إذا قل وجوده .

(٩) جمع عِلق بالكسر وهو الشيء النفيس ويجمع أيضاً على علوق .

فبحياتي لا اشتريتَ الحُصر إلاّ من دكانه ، فالمؤمن ناصح لإخوانه ، لا سيما من تحرّم[١] بخوانه .

ونعود إلى حديث المَضيرة ، فقد حان وقتُ الظهيرة ، يا غلام! الطستَ والماء ، فقلت : الله أكبر! رُبَّما قَرُبَ الفَرَجُ ، وسَهُلَ المخرجُ ، وتقدَّم الغلامُ ، فقال : ترى هذا الغلام ، إنه روميّ الأصل عراقي النشيء ، تقدمْ يا غلام! واحسِر عن رأسك ، وشمّر عن ساقك وانضُ[٢] عن ذراعك ، وافترّ[٣] عن أسنانك ، وأقبل وأدبر. ففعل الغلام ذلك. وقال التاجر: بالله من اشتراه؟ اشتراه والله أبو العباس من النخّاس[٤] ، ضع الطستَ ، وهاتِ الإبريقَ[٥] . فوضعه الغلام وأخذه التاجر وقلّبه وأدار فيه النظر ثمّ نقره. فقال: انظر إلى هذا الشبه كأنّه جذوة[٦] اللهب ، أو قطعةٌ من الذهب ، شبه الشام وصنعةُ العراق ، ليس من خُلقان[٧] الأعلاقِ ، قد عرف دور الملوك ودَارَها[٨] ، تأمل حسنه ، وسلني متى اشتريتَه. اشتريته والله عام المجاعة ، وادّخرته لهذه الساعة ، يا غلام! الإبريقَ ، فقدّمه وأخذه التاجر فقلّبه ، ثم قال: وأُنبوبه[٩] منه ، لا يصلح

---

(١) تمنّع يقال تحرّم من فلان بذمة أو عهد أو جوار إذا صار في حمايته وهذه كناية لطيفة أي من كان ضيفاً عند رجل مرة وجب له حق ويثبت له حرمة عند المضيف ينصح له ويعينه.

(٢) أي انزع ثوبك عن ذراعك بابه نصر.

(٣) أي تبسم لتكشف عن أسنانك.

(٤) بائع العبيد يتجر فيها.

(٥) إناء له عروة وفم وبلبلة ج أباريق.

(٦) بالتثليث الجمرة الملتهبة ج جُذىً وجِذىً وجِذاء.

(٧) جمع خلق بمعنى البالي الرثيث.

(٨) أي طاف في دور الملوك داراً بعد دار يتنافسون فيه لنفاسته فينتقل من يد ملك إلى يد آخر.

(٩) ما بين العقدتين من القصب أو الرمح ويستعار لكل أجوف مستدير كالقصب ج أنابيب.

هذا الإبريق إلاّ لهذا الطست ، ولا يصلح هذا الطَّسْتُ إلاّ مع هذا الدَّسْت[١] ، ولا يحسُن هذا الدست إلا في هذا البيت ، ولا يجمل هذا البيت إلا مع هذا الضيف ؛ أرسلِ الماءَ يا غلام ، فقد حان وقت الطعام. بالله ترى هذا الماء ما أصفاه، أزرق كعين السّنّور ، وصافٍ كقضيب البلّور[٢] ، استُقِيَ من الفرات ، واستعمل بعد البيات ، فجاء كلسان الشمعة ، في صفاء الدمعة ، وليس الشأن في السقاء ، الشأنُ في الإناء ، لا يدلك على نظافة أسبابه ، أصدق من نظافة شرابه ، وهذا المنديل سلني عن قصته ، فهو نسجُ جرجان[٣] ، وعمل أرّجان ، وقع إليّ فاشتريته ، فاتخذت امرأتي بعضه سراويلاً ، واتخذت بعضه منديلاً ، دخل في سراويلها عشرون ذراعاً ، وانتزعتُ من يدها هذا القدر انتزاعاً ، وأسلمته إلى المطرّز[٤] حتى صنعه كما تراه وطرّزه. ثم رددته من السوق ، وخزنته في الصندوق ، وادّخرته للظراف من الأضياف ، لم تذلّه عرب العامّة بأيديها ، ولا النساء لمآقيها[٥] ، فلكل عِلْقٍ يوم ، ولكل آلة قوم.

يا غلام! الخُوان ، فقد طال الزمان ، والقِصاع[٦] ، فقد طال المِصاع[٧] ، والطعام ، فقد كثر الكلام. فأتي الغلامُ بالخوان ، وقلبه التاجر على المكان ، ونقره بالبنان ، وعجمه[٨] بالإسنان ، وقال: عمّر

---

(١) صدر البيت والمجلس ج دسوت.
(٢) بفتح الباء وضم اللام المشددة أو بكسر الباء وفتح اللام المشددة نوع من الزجاج.
(٣) اسم لبلدة وكذا أرّجان وهما معروفتان بجودة النسج.
(٤) طرّز الثوب زينه بالخيوط الملونة والرسوم وما شاكلها.
(٥) جمع مؤق وهو مجرى الدمع من العين أي من طرفها مما يلي الأنف ويجمع أيضاً على آماق وأمآق ومواق.
(٦) جمع قصعة وهي الصفحة التي فيها تؤكل ويجمع أيضاً على قصع وقصعات.
(٧) المقاتلة والمجالدة.
(٨) أي عضّه بالأسنان ليعلم صلابته من رخاوته.

الله بغداد فما أجود متاعها ، وأظرف صُنّاعها تأمّلْ بالله هذا الخوان ، وانظر إلى عرض متنه ، وخفّة وزنه ، وصلابة عوده ، وحسن شكله ، فقلت : هذا الشكل ، فمتى الأكل؟ فقال : الآن.

عجّل يا غلام! الطعام ، لكنَّ الخوانَ قوائمُه منه. قال أبو الفتح : فجاشت[١] نفسي ، وقلت : قد بقي الخَبْز وآلاته ، والخُبز وصفاته ، والحنطة من أين اشتَرَيت أصلاً ، وكيف اكترى لها حملاً ، وفي أيّ رحى طحن ، وإجّانة[٢] عجن ، وأي تنّور سجر[٣] ، وخبّاز استأجر ، وبقي الحطب من أين احتطب[٤] ، ومتى جُلب وكيف صُفّف حتى جُفّف وحُبس حتى يبس ، وبقي الخبّازُ ووصفُه والتلميذُ ونعتُه ، والدقيقُ ومدحُه ، والخميرُ وشرحه ، والملحُ وملاحتُه؛ وبقيتِ السُّكُرُّجات[٥] من اتخذها ، وكيف انتقذها[٦] ، ومن استعملها ، ومن عملها ، والخَلُّ كيف انتُقيَ عنبه ، أو اشتُري رطبه ، وكيف صُهرجت[٧] معصرته[٨] ، واستُخلص لبُّه[٩] ، وكيف قُير[١٠] حبُّه[١١] ، وكم يساوي دنُّه[١٢]. وبقي البقـل

(١) ثارت من حزن أو غضب.
(٢) الإناء الذي يعجن الدقيق فيه ج أجاجين.
(٣) سجر التنور ملأه وقوداً وأحماه بابه نصر.
(٤) جَمَعَ الحطب.
(٥) جمع سكرجة بضم السين وسكون الكاف وضم الراء أو بضم السين والكاف وضم الرء المشددة الصحفة التي يوضع فيها الأكل.
(٦) استخلصها بالشراء من يد بائعهاأو صانعها.
(٧) أي طليت بالصاروج وهو النورة وأخلاطها.
(٨) ما يوضع فيه العنب أو الرطب للعصير.
(٩) - أراد من اللب النوى في الرطب وما يشبهه في العنب أي كيف نقى من لبه.
(١٠) طُلي بالقار وهو القطران.
(١١) بالضم الجرة الكبيرة أو الخابية ج حباب وحِبَبَة وأحباب.
(١٢) الراقود العظيم لا يقعد إلا أن يحفر له ج دِنان.

كيف احتيل له حتى قُطِف[١] وفي أي مبقلة[٢] رُصِف[٣] ، وكيف تُؤنِّق[٤] حتى نُظِّف. وبقيت المضيرة كيف اشتُري لحمُها ، ووُفِّي شحمُها ، ونُصبت قِدرُها ، وأُجّجت[٥] نارُها ، ودُقت أبزارها[٦] ، حتى أجيد طبخها وعُقّد[٧]مرقها ، وهذا خطبٌ يطمّ[٨] ، وأمرٌ لا يتم ، فقمتُ. فقال: أين تريد؟ فقلت: حاجة أقضيها. فقال: يا مولاي! تريد كنيفاً[٩] يزري[١٠] بربيعيّ[١١] الأمير ، وخريفيّ الوزير ، وقد جُصّص[١٢] أعلاه وصُهرج أسفله ، وسُطِّح سقفه ، وفُرشت بالمرمر أرضه ، يزلّ عن حائطه الذرّ[١٣] فلا يعلق ، ويمشي على أرضه الذباب فيزلق ، عليه باب غِيْرانُه[١٤] من خليطي ساج وعاج[١٥] ، مزدوجين أحسن ازدواج ، يتمنى الضيف أن يأكل فيه.

فقلت: كل أنت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف في الحساب ،

---

(١) قطف الثمر جناه بابه ضرب.
(٢) ما يوضع فيه البقل.
(٣) أي ضم بعضه إلى بعض.
(٤) أي كيف جرى التأنق والدقة في العمل حتى نظف ذلك البقل.
(٥) أشعلت وأضرمت.
(٦) جمع بزر وهو التابل أي ما يطيب به الغذاء جج أبازير.
(٧) عقّد المرق تعقيداً إذا أغلاه حتى غلظ.
(٨) طمّ الأمر عظم وتفاقم بابه نصر.
(٩) المستراح ج كُنف وكُنُف.
(١٠) أزراه وأزرى به عابه ووضع من حقه.
(١١) مكان الإقامة في الخلاء وقت الربيع وكذا الخريفي في الخريف.
(١٢) طلاه بالجص.
(١٣) صغار النمل.
(١٤) جمع غار أصله الأخدود بين اللحيين من الفم والمراد هنا الفواصل بين ألواح الباب.
(١٥) عظم سن الفيل.

وخرجت نحو الباب. وأسرعت في الذهاب ، وجعلت أعدو وهو يتبعني ويصيح: يا أبا الفتح! المَضيرةَ. وظن الصبيان أن المضيرة لقَب لي فصاحوا صياحه ، فرميت أحدهم بحجر ، من فرط الضجر ، فلقي رجل الحجر بعمامته ، فغاص في هامته ، فأُخذتُ من النعال بما قدُم وحدُث[١] ، ومن الصفع[٢] بما طاب وخبُث ، وحشرتُ إلى الحبس ، فأقمت عامين في ذلك النحس ، فنذرتُ أن لا آكل مَضيرةً ما عشتُ. فهل أنا في ذا يا آل همذان ظالم؟ . . .

قال عيسى بن هشام: فقبلنا عذره ، ونذرنا نذره؛ وقلنا قديماً جنت المضيرة على الأحرار ، وقدّمت الأراذل على الأخيار[٣]

* * *

(١) بفتح العين ـ أي الدال ـ لكنه إذا ذكر مع قدم ضم اتباعاً.

(٢) الضرب بالكف مبسوطة.

(٣) المقامات لبديع الزمان الهمذاني

المقَـامَـة الزبيـدِيَّـة

للحريـري[١]

أخبر الحارث بن همّام قال: لما جُبْت البيد[٢] ، إلى زبيد[٣] ، صحبني غلام قد كنت رَبَّيْتُه إلى أن بلغ أشدَّه ، وثقَّفْتُه[٤] حتى أكمل رُشْـدَه ، وكان قـد أنس بأخلاقـي ، وخبر مجـالب[٥] وِفاقـي ، فلم يكن

(١) أبو محمد القاسم بن علي البصري (٤٤٦ـ٥١٦هـ) نشأ بالبصرة وتخرج على فضلائها، واشتهر في فنون الأدب وبرز على الأقران، وكان من أوعية العلم، راوية حافظاً للأخبار والأشعار، وقد اشتهر بمقاماته حتى لا تذكر إلا انتقل الذهن إليه. وقد سحرت قلوب الناس وفتنت أنظار الأدباء وبقيت أشهر كتاب والمثال الوحيد للنثر العربي في بعض الأقطار ولها أثر بليغ في أساليب الكتاب ينسجون على منوالها ويتفاخرون بتقليدها. تمتاز كتابة الحريري بالتكلف والمبالغة في الصنعة، وترجيح جانب اللفظ على جانب المعنى، والتزام شديد للقوافي ووحدة الأسلوب، وجملة القول فأسلوبه أسلوب صناعي أجوف مموه، على أن كتاب المقامات قد تضمن ثروة أدبية ضخمة لا يستهان بقدرها فهو قاموس للمفردات الغريبة، والنوادر اللغوية، والأمثال العربية، والأحاجي النحوية. ولعل ذلك هو سر عكوف الناس عليه ودراستهم له.

(٢) جمع بيداء وهي الفلاة من الأرض.

(٣) بفتح الزاي بلدة باليمن بينها وبين صنعاء أربعون فرسخاً وإليها ينسب العلامة مرتضى صاحب تاج العروس.

(٤) أي هذبته وأدّبته من ثقفت الشيء أقمت عوجه.

(٥) جمع مجلبة وهي ما يحمل على الجلب.

يتخطّى[١] مرامي[٢] ، ولا يخطىء في المرامي[٣]. لا جَرَمَ أن قُرَبَه[٤] التاطَتْ[٥] بصَفَري[٦] ، وأخلصْتُه لحَضَري وسَفَري ، فألوى[٧] به الدهر المُبيد[٨] ، حين ضمّتنا زَبيد. فلما شالت نعامَتُهُ[٩]، وسكنت نَأْمَتُه[١٠] ، بقيت عاماً ، لا أُسيغ طعاماً ، ولا أُريغ[١١] غلاماً ، حتى الجأتني شوائب[١٢] الوحدة ، ومتاعب القومة والقعدة ، إلى أن أعتاضَ[١٣] عن الدُّرِ الخَرَز[١٤] ، وارتاد[١٥] من هو سداد من عوز[١٦] ، فقصدتُ مَنْ يبيعُ العبيد ، بسوق زَبيد ، فقلت: أريد غلاماً يُعجبُ إذا قُلّب[١٧] ، ويُـحْمَدُ

---

(١) يتجاوز.

(٢) المرام المقصد.

(٣) جمع مرمى وهو الغرض.

(٤) جمع قربة وهي ما يتقرب به إلى الله تعالى من أفعال البر والطاعة ويجمع أيضاً على قربات.

(٥) التصقت.

(٦) بفتحتين لب القلب، العقل يقال: «لايلتاط هذا بِصَفَري» أي لا يلصق به ولا تقبله نفسي.

(٧) أهلكه.

(٨) المُهْلِك.

(٩) أي مات وهو من الكناية يقال: «شالت نعامة القوم» إذا تفرقوا وارتحلوا أو ذهب عزهم أو ماتوا وشالت أي ارتفعت والنعامة باطن القدم وهي ترتفع عند الموت.

(١٠) حركتُه التي تنمو بحياته وأصلها صوت الأسد أو غيره.

(١١) لا أطلب.

(١٢) جمع شائبة وهي الأخلاط والأكدار.

(١٣) استبدل.

(١٤) فصوص من حجارة.

(١٥) أطلب.

(١٦) الحاجة والضيق.

(١٧) فُتّش.

إذا جُـرّب ، وليكن ممّن خَـرَّجَه[١] الأكياس[٢] ، وأخرجه إلى السوق الإفلاس ، فاهتزَّ كلٌّ منهم لمطلبي ووثَب ، وبذل تحصيله عن كثب[٣] ، ثم دارت الأهلّة دورَها ، وتقلّبت كَوْرَها[٤] ، وحَوْرَها ، ومانجز[٥] من وعودهم وعد ، ولا سحَّ[٦] لها رعد[٧]

فلما رأيت النخّاسين[٨] ، ناسين أو متناسين ، علمت أن ليس كُلُّ مَنْ خلَقَ[٩] يفري[١٠] ، وأن لن يحكّ جلدي مثلُ ظفري[١١] ؛ فرفضت مذهب التفـويـض[١٢] ، وبـرزت إلـى السـوق بـالصفـر والبيـض[١٣] ، فـإنـي لأستعرض[١٤] الغلمان ، وأستعرف الأثمـان ، إذ عـارضني[١٥] رجل قد

---

(١) أي ممن علّمه ودرّبه.
(٢) جمع كيِّس بتشديد الياء المكسورة وهو الفَطِن والحسن الفهم والأدب ويجمع أيضاً على كيسى.
(٣) أي عن قرب.
(٤) أي تمامها ونقصانها من قولهم نعوذ بالله من الحور بعد الكور.
(٥) أي ما حصل وما انقضى بابه نصر.
(٦) سحّ كنصر سحّا وسحوحاً سال وانصب غزيراً.
(٧) هذه الجملة كناية عن عدم وفاء ما وعدوه به.
(٨) الدلالين في الرقيق.
(٩) خلق الشيء كنصر خلقاً وخلقة صنعه وقدره.
(١٠) يقطع بابه ضرب يريد أن ليس من وعد يفي أو ليس كل الناس يقضي الحوائج.
(١١) هذا مثل يضرب في ترك الاتكال على الناس وأن الإنسان هو الذي يخدم نفسه ويقوم بحاجته.
(١٢) التسليم للغير.
(١٣) أي الدنانير والدراهم.
(١٤) أطلب عرضهم عليّ.
(١٥) أي قابلني.

اختَطَم[١] بلثام[٢] ، وقبض على زَنْد[٣] غلام ، وقال:

من يشتري منّي غلاماً صَنَعا[٤] في خَلْقه وخُلْقه قد برعا
بكل ما نُطْتَ[٥] به مُضطلِعا[٦] يشفيك إنْ قال وإنْ قلتَ وَعَى[٧]
وإنْ تُصِبْكَ عَثْرةٌ يَقُلْ لَعا[٨] وإن تَسُمْه[٩] السَّعيَ في النار سعى
وإنْ تُصاحِبْهُ ولو يوماً رعى وإن تُقَنِّعْهُ بظِلْفٍ[١٠] قَنِعا
وهو على الكَيْس الذي قد جَمعا ما فاهَ قطُّ كاذباً ولا ادّعى
ولا أجابَ مطمعاً حين دعا ولا استجازَ[١١] نَثَّ[١٢] سِرٍّ أُوْدِعا
وطالما أَبدعَ فيما صَنعا وفاقَ في النثر وفي النظم معا
والله لولا ضَنْكُ عيشٍ صَدَعا وصِبْيَةٌ أَضْحَوْا عُراةً جُوَّعا
ما بعتُه بمُلْكِ كِسْرى أَجْمَعا

قال: فلما تأمّلت خَلقه القويم ، وحسنه الصميم[١٣] ، خلته من ولدان جنّة النعيم ، وقلت: ما هذا بشراً إن هذا إلاّ ملك كريم. ثمّ استنطقته عن

---

(١) جعل على خطمه وهو الأنف.
(٢) ما كان على الأنف وما حوله من ثوب أو نقاب ج لُثُم.
(٣) الساعد من اليد ج زناد وأزند وأزناد.
(٤) الحاذق بالصناعة.
(٥) علقته به.
(٦) القوي.
(٧) فهم وحفظ.
(٨) سلمت ونجوت وهي كلمة تقال للعاثر معناها أقال الله تعالى عثرتك وسلمك ونجاك.
(٩) أي أن تكلفه.
(١٠) هو لما اجترّ من الحيوانات كالبقرة والظبي بمنزلة الحافر للفرس ج ظلوف وأظلاف.
(١١) استحل.
(١٢) نشر السِّرّ.
(١٣) الخالص.

اسمه ، لا لرغبة في علمه ، بل لأنظرَ أين فصاحتُه من صباحته ، وكيف لهجته من بهجته ، فلم ينطق بحلوةٍ ولا مُرَّة[١] ، ولا فاه فوهةَ ابن أمةٍ ولا حُرَّة ، فضربتُ عنه صَفْحاً[٢] ، وقلت له قُبْحاً لِعيّكَ وشُقْحاً[٣] ، فغارَ[٤] في الضحك وأَنْجد[٥] ، ثم أَنْغَضَ[٦] رأسَه إليّ وأنشد:

يا من تَلَهّبَ غيظُهُ إذ لم أَبُحْ[٧] باسمي له ما هكذا من يُنصِفُ

إن كـانَ لا يُـرضيـكَ إلا كشفُـه فأصِخْ[٨] له أنا يوسفُ[٩] أنا يوسُفُ

ولقد كشفتُ لكَ الغطاء فإن تكن فَطِناً عرفتَ ولا إخالُكَ[١٠] تَعِرفُ

قـال: فَسَرَّي[١١] عَتْبي بشعـره ، واستبى[١٢] لُبّي بسحـره حتى شُدِهتُ[١٣] عن التحقيق ، وأُنسيت قصةَ يوسفَ الصدّيق ، ولم يكن لي

---

(١) أي بكلمة حسنة ولا قبيحة.
(٢) أي أعرضت وملت عنه جانباً.
(٣) أي بعدا وقيل هو اتباع لقبحاً وهو من شقح البسر إذا تغيرت خضرته بحمرة أو صفرة وقيل من شقحت العود إذا كسرته وقبحاً وشقحاً بضم أولهما وفتحه.
(٤) اتى الغور وهو ما انخفض من الأرض.
(٥) أتى النجد وهو ما ارتفع من الأرض أي بالغ في الضحك حيث خفض رأسه مرة ورفعه أخرى.
(٦) حركه متعجباً على سبيل الاستهزاء ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥١]
(٧) لم أظهر.
(٨) استمع.
(٩) يعني أنا حر لا يجوز بيعي يشير به إلى بيع يوسف الصديق على نبينا وعليه الصلاة والسلام.
(١٠) أظن والقياس أخال بفتح الهمزة والكسر أفصح.
(١١) أي أذهب غيظي من سروت عنه الثوب إذا نزعته.
(١٢) أي ملك قلبي وأسره.
(١٣) تحيرت.

هَمٌّ إلا مساومةَ مولاه فيه ، واستطلاع طِلْع[١] الثمن لأوفّيه ، وكنت أحسبُ أنه سينظر شزراً[٢] إليّ ، ويُغْلي السِّيمةَ[٣] عليّ ، فما حَلَّق[٤] إلى حيث حَلّقت ، ولا اعتلقَ بما به اعتلقت ، بل قال: إن الغلام إذا نَزُرَ[٥] ثمنُه ، وخفّت مُؤَنُه[٦] ، تبرّكَ به مولاه ، والتحف[٧] عليه هواه ، وإنّي لأوثر تحبيبَ هذا الغلام إليك ، بأن أُخفّفَ ثمنَه عليك ، فزنْ مئتي درهم إن شئت ، واشكر لي ما حييت ، فنقدتُه المبلغَ في الحال ، كما يُنْقَدُ في الرخيص الحلال ، ولم يخطر لي ببال ، أنّ كل مرخّصٍ غال. فلما تحققتِ الصفقة[٨] ، وحقتِ الفرقة ، هَمَلَتْ[٩] عينا الغلام ، ولا هُمول دَمْع الغَمام[١٠] ، ثم أقبل على صاحبه وقال:

لحـاكَ[١١] اللهُ هـل مثلـي يبـاعُ لكيمـا تَشْبَـعَ الكَـرِشُ[١٢] الجيـاعُ
وهل في شِرعة[١٣] الإنصاف أنّي أُكَلَّـفُ خُطَّـةً[١٤] لا تُستطـاعُ
وأنْ أُبلَـي بـرَوْعٍ بعـدَ رَوْعٍ ومثلـي حيـنَ يُبْلَـى لا يُـراعُ

(١) القدر.
(٢) النظر بجانب العين مع إعراض أو غضب.
(٣) القيمة.
(٤) دار وحام من قولهم حلّق الطائر إذا ارتفع في طيرانه أي لم يحم حول ما خطر بفكري.
(٥) نزر ككرم نزراً قلّ.
(٦) جمع مؤنة الشدة والثقل.
(٧) اشتمل.
(٨) البيعة.
(٩) هملت كنصر وضرب هملا وهملاناً وهمولاً عينه فاضت دموعاً.
(١٠) أي المطر.
(١١) قبحك ولعنك.
(١٢) بفتح الكاف وكسر الراء عيال الرجل من صغار ولده-يقال جاء يجر كرشه أي عياله ج إكراش وكروش.
(١٣) الطريقة إلى الماء ج شِرَع وشَرْع وشِرَع وشِراع.
(١٤) الأمر ج خطط.

أمـا جَـرّبتنـي فخبَـرْتَ منـي نصـائـحَ لـم يُمَـازِجْهـا خِـداعُ
وكـم أرصَـدْتَنـي شـركـاً لصيـدٍ فعُـدْتُ وفـي حبـائِلـيَ السِّبـاعُ
ونُطْتَ بيَ المصاعبَ[١] فاستقادَتْ[٢] مطـاوِعَـةً وكـان بهـا امتنـاعُ
وأيّ كـريهـةٍ[٣] لـم أُبْلِ[٤] فيهـا وغُنْمٍ[٥] لم يكن لي فيه باعُ[٦]
ومـا أبـدتْ لـيَ الأيـامُ جُـرْمـاً فيُكشَـفَ فـي مُصـارمتـي القِنـاعُ
ولـم تَعْثُـرْ[٧] بحمـدِ الله منـي علـى عَيْـبٍ يُكتّـم أو يُـذاعُ
فَـأَنّـي سـاغَ عنـدكَ نَبْـذُ عَهْـدي كما نَبذَتْ بُرايتَها[٨] الصَّناعُ[٩]
ولِمْ سَمَحَتْ قرونُكَ[١٠] بامتهاني؟[١١] وأن أُشْـرى كمـا يُشْـرى المتَـاعُ
وهلاّ صنتَ عرضي عنه صَوْني حـديثَـكَ يـومَ جـدَّ بنـا الـوَداعُ
وقلـتَ لمـن يسـاومُ فـيَّ هـذا سكـابِ[١٢] فمـا يُعـارُ ولا يُبـاعُ
فما أنا دونَ ذاكَ الطِرْفِ[١٣] لكنْ طِبـاعُـكَ فـوقَهـا تلـك الطِّبـاعُ

---

(١) جمع مُصْعَب وهوالفحل والمراد هنا الشدائد.
(٢) انقادت.
(٣) الحرب.
(٤) أبلى في الحرب أظهر فيها جلادته.
(٥) الغنيمة.
(٦) المراد هنا البطش أو الحظ.
(٧) عثر كنصر عثراً وعثوراً على السر وغيره اطلع عليه.
(٨) ما يلقى من الشيء الذي يصنع وما ينحت من الأديم والقلم عند بريه.
(٩) المرأة الحاذقة بالصنعة.
(١٠) نفسك.
(١١) أي بإذلالي وأصل المهنة الخدمة والماهن الخادم.
(١٢) مبني على الكسر اسم فرس لرجل من بني تميم طلبه منه بعض الملوك فمنعه إياه وأنشد:
أبيـتَ اللعـنَ إن سَكـابِ عِلْـقٌ نفيـسٌ لا يُعـارُ ولا يُبـاعُ
(١٣) الفرس الكريم ج طروف وأطراف يريد أني لست أقل من ذلك الفرس الذي منعه صاحبه من طلب الملك لكن طباع صاحبه فوق طباعك حيث كان يؤثره على جميع عياله.

علـى أنّـي سـأُنشـدُ عنـدَ بيعـي «[١]أضاعوني وأيَّ فتىً أضاعوا»

قال: فلما وَعَى الشيخُ أبياتَه ، وعَقَلَ مناغاتَه[٢] ، تنفّسَ الصُّعَداء ، ويكى حتى أبكى البُعَداء ، ثم قال لي: إني أُحِلُّ هذا الغلامَ محلَّ ولدي ، ولا أميِّزُه عن أفلاذ[٣] ، كبدي ، ولولا خُلُوُّ مراحي[٤] وخُبُوُّ مِصْباحي ، لما دَرَجَ عن عُشِّي[٥] ، إلى أن يُشَيِّعَ نَعْشي ، وقد رأيتَ ما نزلَ به من لوعَةِ البين[٦] ، والمؤمن هَيْنٌ لَيْن[٧] ، فهل لكَ في تَسْلية قلبه ، وتَسْريةِ[٨] كَرْبه ، بأنْ تُعاهِدَني على الإقالةِ فيه متى استَقَلْتُ[٩] ، وأن لا تَسْتَثْقِلَني إذا ثَقَلْتُ ، ففي الآثار المُنتقاة[١٠] ، المروية عن الثقات ، من أقال نادماً بَيْعَتَه ، أقالَهُ اللهُ عَثْرَتَه .

قال الحارث بن هَمَّام: فوعدتُه وعداً أبرزَهُ الحياء ، وفي القلب أشياء ، فاسْتَدْنَى حينئذٍ الغلام إليه ، وقَبَّـلَ ما بينَ عَيْنَيْه ، وأنشدَ والدمعُ يرفضُّ[١١] من جَفْنَيْه:

خَفِّضْ[١٢] ـ فَدَتْكَ النفسُ ـ ما تلاقي مـن بُـرَحـاءِ الـوَجْـدِ والإشفـاقِ

---

(١) أي لم يعرفوا قدري وهذا شطر بيت للعَرْجيِّ وتمامه:
أضـاعـونـي وأي فتـى أضـاعـوا ليـوم كـريهـة وسـداد ثغـر

(٢) الكلام وأصل المناغاة تكليم الطفل الصغير بما يسره ويعجبه كما تفعل الأمهات بأولادها.

(٣) جمع فلذة بالكسر وهي القطعة.

(٤) المنزل.

(٥) استعار به عن البيت أي ما خرج من بيتي.

(٦) حرقة الفراق.

(٧) سهل الأخلاق.

(٨) الإزالة.

(٩) أي طلبت الإقالة وهي فسخ البيع.

(١٠) المختارة.

(١١) يترشّش ويتفرق.

(١٢) أي هوّن عليك.

فمــا تطــولُ مُــدَّةُ الفــراقِ ولا تَنــي[١] ركــائــبُ التَّــلاقــي
بحُسنِ عَوْنِ القادرِ الخلّاقِ

ثم قال له: استودعُكَ مَنْ هو نِعْمَ المولى، وشَمَّرَ ذيلَهُ وولَّى. فلبث الغـلامُ فـي زَفيـرٍ[٢] وعَـويـلٍ[٣]، رَيْثَمَـا يقطـعُ مـدَى ميـلٍ[٤]، فلمـا استفاق[٥]، وكفكف[٦] دمعه المهراق[٧]، قال: أتدري لم أَعْوَلْتُ[٨]؟ وعلامَ عَوّلتُ[٩]؟ فقلت: أظنُّ فراقَ مولاك، هو الذي أبكاك، فقال؛ إنك لفي وادٍ وأنا في وادٍ[١٠]، ولكم بين مُريدٍ ومُراد، ثم أنشد:

لم أبكِ ـ واللهِ ـ على إلْفٍ[١١] نَزَحْ[١٢] ولا علــى فَــوْتِ نَعيــمٍ وَفَــرَح
وإنّمـا مـدمعُ أجفـانـي سَفَـحْ[١٣] على غَبيٍّ لحظُهُ حين طَمَحْ[١٤]
وَرَّطَـهُ[١٥] حتـى تَعنَّـى[١٦] وافتضـحْ وضَيَّعَ المنقوشَةَ[١٧] البيضَ الوَضَح[١٨]

---

(١) لا تفتر ولا تضعف من ونى يني.
(٢) إخراج النفس بشدة.
(٣) البكاء بصياح.
(٤) هو مدّ البصر وقيل ثلاثة آلاف ذراع.
(٥) أفاق.
(٦) منع وغيض.
(٧) المنصب.
(٨) صحت بالبكاء.
(٩) عزمت واعتمدت.
(١٠) مثل يضرب في اختلاف المقاصد أي بيني وبينك بون بعيد.
(١١) المحبوب ج آلاف.
(١٢) بُعد.
(١٣) سال.
(١٤) ارتفع بصره ونظر شديداً
(١٥) أوقعه في ورطة وهي الهلكة وكل أمر تعسر النجاة منه.
(١٦) تعب.
(١٧) أي الدراهم.
(١٨) حلي من فضة والجمع أوضاح وفي الصحاح الوضح الدرهم الصحيح والوضح البياض.

ويكَ أما ناجَتْكَ هاتيكَ المُلَحْ[١] بــأنّــي حــرٌّ وبَيْعــي لــم يُبَــحْ

إذْ كانَ في يوسفَ معنًى قد وَضَحْ

قال: فتمثّلت[٢] مقاله في مِرْآة المُداعِب[٣] ، ومَعْرِضِ المُلاعب ، فتصلَّبَ تصلُّبَ المُحِق ، وتَبَرَّأ من طينة الرّق[٤] ، فجلنا في مخاصَمَة ، اتصلت بملاكمة[٥] ، وأفضت[٦] إلى محاكمة[٧]. فلما أوضَحْنا للقاضي الصُّورة ، وتلونا عليه السُّورة[٨] ، قال: ألا إن من أَنْذَر ، فقد أَعْذَر[٩] ، ومن حَذَّر ، كَمَن بَشَّر ، ومن بَصَّر ، فما قَصَّر ، وإن فيما شرحتماه لدليلاً على أنَّ هـذا الغـلام قـد نَبَّهـكَ فمـا ارعَـوَيْـت[١٠] ، ونصـح لـك فمـا وَعَيْت[١١] ، فاستُرْ داءَ بَلَهِكَ واكتمه ، ولُم نفسكَ ولا تلمهُ ، وحَذارِ[١٢] من اعتلاقِه[١٣] والطَّمَع في استرقاقِه ، فإنه حرُّ الأَديم[١٤] ، غير مُعَرَّضٍ للتقويم[١٥] ، وقد كَانَ أبوه أحضَرَه أمس ، قبيل أُفولِ[١٦] الشَّمْس ،

(١) جمع مُلحة وهي من الأحاديث ما لذ واستملح منها.
(٢) تصورت.
(٣) الممازح من الدعابة وهي المزاح.
(٤) أي استنكف وتحاشى عن كونه رقيقاً.
(٥) من اللكم وهو الضرب بجمع الكف.
(٦) وصلت.
(٧) هي الذهاب إلى الحاكم.
(٨) أي الواقعة.
(٩) صار معذوراً.
(١٠) أي فما انتبهت ولا انكففت.
(١١) أي فما أدركت وما التفت لنصيحته.
(١٢) مبني على الكسر اسم فعل بمعنى احذر.
(١٣) أي إمساكه.
(١٤) الجلد والمراد ليس به شائبة رق.
(١٥) أي لجعله ذا قيمة كالمبيعات.
(١٦) الغروب.

واعترف بأنه فرعُه الذي أنشأه[١] ، وأن لا وارثَ له سواه .

فقلت للقاضي : أو تعرف أباه ، أخزاه الله! فقال: وهل يجهلُ أبو زيد الذي جرحه جُبار[٢] ، وعند كل قاض له أخبار وإخبار؟ فتحرَّقْتُ حينئذ وحَوْقَلْتُ[٣] وأفقت ولكن حين فاتَ الوقت ، وأيقنتُ أن لثامه كان شَرَكَ مكيدتهِ ، وبيتَ قصيدَتِهِ[٤] ، فنكَّسَ[٥] طَرفي ما لَقيت ، وآليتُ أن لا أعاملَ مُلثّماً ما بقيت ، ولم أزل أتأوّه[٦] لخُسر صَفْقَتي ، وافتضاحي بين رُفْقَتي .

فقالَ ليَ القاضي ، حينَ رأى امتعاضِي[٧] ، وتبيّن حَرَّ ارتماضي[٨] ، يا هذا! ما ذهب من مالك ما وعظَكَ[٩] ، ولا أَجْـرَمَ إليك من أيقظَـكَ ، فاتّعـظْ بما نَابَـك . وكاتِمْ أصحابَـكَ ما أصابَـكَ ، وتذكَّرْ أبداً ما دهَمَك ، لِتَقِيَ الذكرى دراهمَك ، وتخلَّقْ بخُلُق مَنْ ابتُليَ فَصَبَر ، وتَجَلَّتْ له العِبَـرُ فاعْتَبَر .

قال الحارث بن همّام: فَوَدَّعتُه لابساً ثوبَ الخَجَلِ والحُزْن ، ساحباً

---

(١) يعني أنه ابنه الذي ولده .
(٢) الهدر في الحديث جرح العجماء جبار أي هدر لا قصاص فيه .
(٣) أي قلت لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .
(٤) بيت القصيدة مثل يضرب في النادر العزيز .
(٥) طأطأه من ذل .
(٦) أتوجع .
(٧) القلق والتحرق وقيل الغضب .
(٨) الاحتراق والمراد حرقة توجعي يقال رمضت قدمه احترقت من الرمضاء وهي الحجارة التي اشتد عليها وقع الشمس فحميت وارتمض فلان كذا اشتد عليه غضبه .
(٩) هذا مثل يضرب ومعناه الذي ذهب من مالك يحذرك أن يذهب منك غيره فتوجعك وندامتك تدعو إلى الحرص عليه فيكون بقاؤه لك عوضاً مما ذهب منك .

ذَيْلَي الغَبْن والغَبَن[١] ، ونويت مكاشفةَ أبي زيد بالهَجْر ، ومصارمته[٢] يد الدَّهر[٣] ، فجعلت اتنكّبُ[٤] عن ذراه[٥] ، وأتجنَّبُ أنْ أراه ، إلى أن غشيني[٦] في طريق ضيّق ، فحيّاني تحيّة[٧] شَيّق ، فما زدتُ على أن عَبَسْتُ ، وما نَبَسْتُ[٨] ، فقال: ما بالكَ؟ شَمَخْتَ[٩] بأنفك على إلفك[١٠] ، فقلت: أنسيتَ أنّكَ احتلتَ وخَتَلْتَ[١١] ، وفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَلْتَ؟ فأَضْرَطَ[١٢] بي مُتَهازياً[١٣] ، ثم أنشد مُتلافياً[١٤] :

يـا مَـنْ بـدا منـه صُـدو دٌ[١٥] مُـوحِـشٌ وَتَجَهُّـمٌ[١٦]

---

(١) الأول باسكان الموحدة وهو البيع بأزيد من القيمة والثاني بفتحها وهو ضعف العقل.
(٢) المقاطعة.
(٣) اي مدة نعمة الدهر وهي الحياة إلى آخر العمر.
(٤) أي أعدل وأتباعد.
(٥) منزله وبيته.
(٦) لقيني وقابلني.
(٧) سلام مشتاق شديد الحب.
(٨) ما تكلمت وأكثر استعمال هذا اللفظ في النفي.
(٩) شمخ كفتح شمخاً وشموخاً أنفه وبأنفه رفعه اعتزازاً وتكبراً.
(١٠) محبوبك.
(١١) خدعت بابه نصر وضرب.
(١٢) أي سخر مني وأصله أن يضع الشخص ظهر يده على فمه وينفخ فيخرج صوت كصوت الضرطة.
(١٣) الساخر.
(١٤) متداركاً ما فات.
(١٥) الإعراض.
(١٦) تجهمه وتجهم له استقبله بوجه عبوس كريه.

وغـدا يَـريـش[١] مَـلاومـاً[٢] ... مـن دونهـنَّ الأسهـمُ
ويقـولُ هـل حُـرٌّ يُبـا ... عُ كمـا يُبـاعُ الأَدْهَـمُ[٣]
أَقْصِـرْ[٤] فمـا أنـا فيـه بِـدْ ... عـاً مثـلَ مـا تَتَـوَهَّـمُ
قـد بـاعَـتِ الأَسبـاطُ[٥] قَبْلـي ... يـوسُفـاً وهُـمُ هُـمُ
هـذا وأُقْسِـمُ بـالّتـي[٦] ... يَسْـري إليهـا المُتْهِـمُ[٧]
والطّـائفيـن بهـا وهُـمْ ... شُعْـثٌ[٨] النَّـواصـي سُهَّـمُ[٩]
مـا قمـتُ ذاكَ المـوقـفَ الـ ... مُخـزي وعنـدي دِرْهَـمُ
فـاعْـذُرْ أخـاكَ وكُـفَّ عنـ ... ـه مَـلامَ مَـنْ لا يَفْهَـمُ

ثم قال: أمّا معذرتي فقد لاحَتْ ، وأمّا دراهمكَ فقد طاحَتْ[١٠] ، فإن كان اقشعرارك[١١] منّي ، وازورارك[١٢] عنّي ، لفرط شفقتك ، على غُبَّرِ[١٣] نفقتك ، فلستُ ممّن يلسع[١٤] مرتين ، ويوطىء على جمرتين ،

---

(١) أصله وضع الريش على السهم وأراد أنه يهيىء له الكلام المؤلم.
(٢) جمع ملامة.
(٣) الأسود والمراد الفرس الأسود أو العبد الأسود.
(٤) كف عن اللوم.
(٥) كالقبائل وهم أولاد سيدنا يعقوب ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ سيدنا يوسف وإخوته.
(٦) أراد الكعبة شرفها الله.
(٧) الذاهب إلى تهامة.
(٨) جمع أشعث أي المغبّر والمتلبّد.
(٩) جمع ساهم ذابل الشفتين هزالاً وقيل الساهم المتغير الوجه من وهج الشمس.
(١٠) ذهبت وفنيت.
(١١) الانقباض.
(١٢) الميل.
(١٣) جمع غابر غبّر الشيء بقاياه.
(١٤) يلدغ وقيل اللسع لذوات الإبر واللدغ بالفم فالعقرب تلسع والحية تلدغ وهذا اقتباس من حديث مرفوع «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين».

وإن كنتَ طويتَ[١] كشحكَ ، وأطعت شُحَّك ، لتستنقذ ما عِلَق بأشراكي ، فلتبك على عقلك البواكي .

قال الحارث بن همّام : فاضطّرني بلفظه الخالب ، وسحره الغالب ، إلى أن عُذْتُ له صفيّا ، وبه حَفيّاً[٢] ، ونبَذْتُ فَعْلَتَه ظِهْرِياً[٣] ، وإن كانت شيئاً فريّاً[٤] [٥]

* * *

(١) أي أعرضت.

(٢) العطوف المبالغ في الإكرام.

(٣) أي خلف ظهري منسيّة وكسر الظاء من تغييرات النسب.

(٤) أي أمراً عظيماً.

(٥) المقامات للحريري .

عتـابٌ وَتـأنيب

للقاضي الفاضل[١]

اتصل بالقاضي الفاضل أن أخاه عبد الكريم نال الأمير علم الدين بن النحاس بأذى وجفاء. فكتب إليه يؤنّبه[٢]:

سبب إصدار هذه المكاتبة إلى الأخ ـ أصلحه الله ـ إعلامه ما صحَّ عندي من الأحوال التي أخفاها والله مبديها في حق الأمير علم الدين، وبالله أقسم لئن لم تداو ما جرحتَ وتستدرك[٣] ما فعلتَ، وتمحُ ما أثبتَّ، وتستأنف ضدَّ القبيح الذي كتبتَ به وشافهتَ[٤]، وتعتذر

---

(١) هو أبو علي عبد الرحيم البيساني العسقلاني (٥٢٩ ـ ٥٩٦هـ) تعلم كتابة الدواوين في مصر ودخل ديوان قاضي الإسكندرية وامتاز بنبوغه، فاشتغل في ديوان الظافر في القاهرة؛ وقامت الدولة الأيوبية فكان وزيراً لصلاح الدين ومدبر ملكه وصاحب سره، وكذلك كان لولده ثم لأخيه حتى توفي.
القاضي الفاضل من أبطال الطريقة العميدية ومجددها ـ طريقة الصناعة والتكلف والاسجاع والقوافي ـ وزاد عليها الإغراق في التورية والجناس وكان له التأثير في الكتابة في عصره وبعد عصره ما كان لعبد الحميد الكاتب وابن العميد لوظيفتهم ومنصبهم ولم تزل مؤثرة عند الأدباء حتى فقدت مكانتها بتأثير ابن خلدون ومقتضيات العصر الجديد على أنه لا تزل منها بقية. وهذه الرسالة البليغة على غير طريقته العادية.

(٢) يوبخه.

(٣) تصلح ما فات.

(٤) خاطبت مواجهة.

بالجميل فيما قاطعت الله به وبارزت ، ليكونن الحديث مني بغير الكتب ، ولأزيلن السبب الذي قدرت به على مضرة الأصحاب ، وما أشد معرفتي بأن الطبَاع لا تتغير ، وبأنك ستحوجني بعد هذا الكتاب إلى ما لا يتأخر ، وبالجملة فاستدرك بفعلك لا بأيمانك لي وتنصّلك[١] إليّ :

فالدم في النصل شاهد عجب

وويل لمن كانت غنيمته من الأيام عقد القلوب على البغضاء، وإطلاق الألسنة بالمذام[٢] . ولولا أنني شريكك في كل ما تستوجبه من الناس لألقيتُ حبلك على غاربك[٣] ، وتركتك وما اخترتَ لنفسك ولكن :

كيف بمن يرمي وليس برامي

لكنَّ سكوت الناس عن قبيحك مقابلة لجميل كثير مني ، فإذا أنت لا تنفق إلا من كيسي ، فأَشفق على نفسك إن كنتَ تنظر في غد ، وعلى بيتك إن كنت تنظر في أمس ، وعلى مكانك مني إن كنت لا تنظر إلا في اليوم ، ولا تجاوبني إلا بلسان الرجل شاكراً لك فإنه وإن كان والله ما ذمّك فقد ذممتك به عنه .

وما أظن أنك تذكر أنني كتبت إليك كتاباً ولا كنت أؤثره ، ولولا حافز[٤] غيظ ما كتبته ، ولولا علمي أن الكثير مما قيل عنك في أمر الرجل هو القليل مما فعلته لأضربت عن هذا كما أضربت عن غيره ، وستعرّفك الأيام ما كنتَ تجهل ، والله يأخذ بناصيتك إلى رضاه ، ويغمد سيف حليلتك عن مقتلك ، والسلام![٥]

* * *

---

(١) تنصّل إلى فلان من الجناية أي خرج وتبرأ عنده منها.

(٢) جمع مذمّة.

(٣) الكاهل أو ما بين الظهر أو السنام والعنق ، والغارب أعلى كل شيء ج غوارب.

(٤) الدافع.

(٥) كمال الدين بن العديم العقيلي في تذكرته.

وصفُ مجالِس ابنْ الجوزي[(١)]

لابن جبير الأندلسي[(٢)]

ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه الإمام الأوحد جمال الدين أبي الفضائل بن عليّ الجَوزي بإزاء داره على الشط بالجانب الشرقي وفي آخره على اتصال من قصور الخليفة وبمقربة من باب البصلية آخر أبواب الجانب الشرقي ، وهو يجلس به كل يوم سبت ، فشاهدنا مجلس رجل ليس من عَمْرو ولا زَيْد ، وفي جوف الفرا كل الصيد[(٣)] آية الزمان ، وقرة عين الإيمان ، رئيس الحنبلية ، والمخصوص في العلوم

(١) مرت ترجمته في الجزء الأول.

(٢) هو محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي (٥٤٠ ـ ٦١٤هـ) سمع من أبيه بشاطبة ، ومن أبي عبد الله الأصيلي وأبي الحسن بن أبي العيش وأخذ عنه القراءات ، وعني بالآداب فبلغ الغاية فيها وتقدم في صناعة القريض وصناعة الكتابة ونال بها دنيا عريضة ثم رفضها وزهد فيها ، وحدث بكتاب الشفاء عن أبي عبد الله محمد بن عيسى التميمي السبتي عن القاضي عياض وتوجه إلى الحج ودخل بغداد والشام وسمع بهما ، وقدم مصر فسمع منه الحافظان أبو محمد المنذري والحافظ أبو الحسين يحيى بن علي القرشي وصنف الرحلة المشهورة وذكر ما شاهده من عجائب البلدان وغرائب المشاهد وبدائع المصانع وهو كتاب مؤنس ممتع.

(٣) مقتبس من المثل السائر «كل الصيد في جوف الفرا» الفرا حمار الوحش. أصل المثل أن ثلاثة رجال خرجوا يصطادون ، فاصطاد أحدهم أرنباً والآخر ظبياً والثالث حمار وحش. فاستبشر الأولان وتطاولا فقال الثالث: كل الصيد في جوف الفرا أي أنه أعظم الصيد فمن ظفر به أغناه عن كل صيد.

بالرتب العلية ، إمام الجماعة ، وفارس حلبة[١] هذه الصناعة ، والمشهود له بالسبق الكرم في البلاغة والبراعة ، مالك أزمّة الكلام في النظم والنثر ، والغائص في بحر فكره على نفائس الدر ، فأما نظمه فرضيُّ الطباع ، مهياري الانطباع[٢] وأما نثره فيصدع بسحر البيان ، ويعطل المثل بقسّ وسحبان[٣] ومن أبهر آياته وأكبر معجزاته أنه يصعد المنبر ويبتدىء القراء بالقرآن وعددهم نيف على العشرين قارئاً فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القرآن يتلونها على نسق بتطريب وتشويق ، فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية. ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات إلى أن يتكاملوا قراءة وقد أتوا بآيات مشتبهات لا يكاد المتقد الخاطر يحصلها عدداً أو يسميها نسقاً. فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن في إيراد خطبته عجلاً مبتدراً ، وأفرغ في أصداف الأسماع من ألفاظه درراً ، وانتظم أوائل الآيات المقروءات في أثناء خطبته. فقرأ وأتى بها على نسق القراءة لها لا مُقدماً ولا مؤخراً. ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها ، فلو أن أبدع مَنْ في مجلسه تكلّف تسمية ما قرأ القُرّاء آية آية على الترتيب لعجز عن ذلك فكيف بمن ينتظمها مرتجلاً ويورد الخطبة الغراء بها عجلاً ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]. فحدث ولا حرج عن البحر! وهيهات ليس الخَبر عنه كالخُبر[٤]. ثم أنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها

---

(١) الحلبة بالتسكين خيل تجمع للسباق من كل أوب لا تخرج من اصطبل واحد.

(٢) لعله منسوب إلى الشريف الرضي صاحب نهج البلاغة ، ومهياري الانطباع منسوب إلى أبي الحسين مهيار بن مرزويه الكاتب الفارسي الديلمي كان مجوسياً فأسلم ويقال إن إسلامه كان على يد الشريف الرضي وعليه تخرج في نظم الشعر وكان شاعراً جزل القول.

(٣) قس بن ساعدة الأيادي أسقف نجران ، وكان أحد حكماء العرب. وسحبان اسم رجل من وائل كان لسنا بليغاً يضرب به المثل في البيان.

(٤) كالخبر بالضم أي الاختبار بالمشاهدة.

القلوب اشتياقاً ، وذابت بها الأنفس احتراقاً ، إلى أن علا الضجيج ، وتردد بشهقاته النشيج ، وأعلن التائبون بالصياح ، وتساقطوا عليه تساقط الفراش[١] على المصباح . كل يلقي ناصيته بيده فيجزها ويمسح على رأسه داعياً له ، ومنهم من يغشى عليه فيرفع في الأذرع إليه فشاهدنا هولاً يملأ النفوس إنابة وندامة ، ويذكرها هول يوم القيامة ، فلو لم نركب ثبج[٢] البحر ، ونعتسف[٣] مفازات[٤] القفر ، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابحة ، والوجهة المفلحة الناجحة . والحمد لله على أن منّ بلقاء من يشهد الجمادات بفضله ، ويضيق الوجود عن مثله . وفي أثناء مجلسه ذلك يبتدرون المسائل وتطير إليه الرقاع فيجاوب أسرع من طرفة عين وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل . والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء لا إله سواه .

ثم شاهدنا مجلساً ثانياً له بكرة يوم الخميس الحادي عشر لصفر بباب بدر في ساحة قصور الخليفة ومناظره مشرفة عليه . وهذا الموضع المذكور هو من حرم الخليفة ، وخص بالوصول إليه والتكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته ومن حضر من الحرم ، ويفتح الباب للعامة فيدخلون إلى ذلك الموضع وقد بُسط بالحصر ، وجلوسه بهذا الموضع كل يوم خميس . فبكرنا لمشاهدته بهذا المجلس المذكور ، وقعدنا إلى أن وصل هذا الحبر المتكلم ، فصعد المنبر وأرخى طيلسانه[٥] عن رأسه تواضعاً لحرمة المكان ، وقد تسطر القراء أمامه على كراسي موضوعة . فابتدروا القراءة على الترتيب وشوقوا ما شاؤوا ، وأطربوا ما أرادوا

---

(١) الفراش جمع فراشة طائر صغير يتهافت على السراج فيحترق .
(٢) أي الوسط .
(٣) من الاعتساف وهو الركوب على الطريق من غير هداية ولا دراية .
(٤) جمع مفازة وهي الفلاة .
(٥) كساء أخضر يلبسه الخواص من المشايخ والعلماء وهو من لباس العجم .

وبادرت العيون بإرسال الدموع. فلما فرغوا من القراءة وقد أحصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات، صدع بخطبته الزهراء الغراء وأتى بأوائل الآيات، في أثنائها منتظمات، ومشى الخطبة على فقرة آخر آية منها في الترتيب إلى أن أكملها. وكانت الآية: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ . . . ﴾ [غافر: ٦١] فتمادى على هذا السين، وحسن أيّ تحسين، فكان يومه في ذلك أعجب من أمسه. ثم أخذ في الثناء على الخليفة والدعاء له ولوالدته، وكنّى عنها بالستر الأشرف، والجناب الأرأف، ثم سلك سبيله في الوعظ. كل ذلك بديهةً لا روية، ويصل كلامه في ذلك بالآيات المقروءات على النسق مرة أخرى فأرسلت وابلها العيون، وأبدت النفوس سرَّ شوقها المكنون، وتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين، وبالتوبة معلنين، وطاشت الألباب والعقول، وكثر الوله[١] والذهول، وصارت النفوس لا تملك تحصيلاً، ولا تميز معقولاً، ولا تجد للصبر سبيلاً.

ثم في أثناء مجلسه ينشد بأشعار من النسيب[٢] مبرحة التشويق، بديعة الترقيق، تشعل القلوب وجداً، ويعود موضعها النسيبي زهداً، وكان آخر ما أنشده من ذلك وقد أخذ المجلس مأخذه من الاحترام، وأصابت المقاتل[٣] سهام ذلك الكلام:

أيــن فــؤادي أذابــهُ الــوجــدُ وأيـن قلبـي فمـا صحـا[٤] بعـدُ
يـا سَعـدُ زدنـي جـوًى بـذكـرهـم بـالله! قـل لـي فُـديـت يـا سعـدُ

(١) الوله أي التحير من شدة الوجد.
(٢) النسيب وهو ذكر الشاعر المرأة بالحسن والإخبار عن تصرف هواها به، وليس هو الغزل وإنما الغزل الاشتهار بمودات النساء والصبوة إليهن، والنسيب ذكر ذلك والخبر عنه.
(٣) جمع مقتل وهو العضو الذي إذا أصيب لا يكاد صاحبه يسلم.
(٤) أفاق.

ولم يزل يردّدها والانفعال قد أثّر فيه ، والمدامع تكاد تمنع خروج الكلام من فيه ، إلى أن خاف الإفحام ، فابتدر القيام ، ونزل عن المنبر دهشاً عجلاً ، وقد أطار القلوب وجلاً ، وترك الناس على أحرّ من الجمر ، يشيّعونه بالمدامع الحمر ، فمن معلن بالانتحاب[1] ، ومن متعفر في التراب ، فيا له من مشهد ما أهول مرآه! وما أسعد من رآه! نفعنا الله ببركته ، وجعلنا ممن فاز به بنصيب من رحمته بمنه وفضله!

وفي أول مجلسه أنشد قصيداً نير القبس ، عراقي النفس ، في الخليفة أوله :

فـي شغـل مـن الغـرام شـاغـل ما هـاجـه البـرق بسفـحِ عـاقـل

يقول فيه عند ذكر الخليفة :

يـا كلمـاتِ اللهِ كـونـي عـوذةً مـن العُيـونِ لـلإمـامِ الكـامـل

ففرغ من إنشاده وقد هزَّ المجلس طرباً. ثم أخذ في شأنه وتمادى في إيراد سحر بيانه وما كنا نحسب أن متكلماً في الدنيا يعطي من ملكة النفوس والتلاعب بها ما أعطى هذا الرجل! فسبحان من يخصّ بالكلام من يشاء من عباده لا إله غيره.

وشاهدنا بعد ذلك مجالس لسواه من وُعّاظ بغداد ممن يستغرب شأنه بالإضافة لما عهدناه من متكلمي الغرب. وكنا قد شاهدنا بمكة والمدينة «شرفهما الله» مجالس من قد ذكرناه في هذا التقييد ، فصغرت بالإضافة لمجلس هذا الرجل الفذ في نفوسنا قدراً ، ولم نستطب لها ذكراً ، وأين تقعان مما أريد وشتان بين اليزيدين[2]! وهيهات الفتيان كثير ، والمثل

---

(١) أي البكاء الشديد مع التنفس الشديد.

(٢) إيماء إلى قول الشاعر :

لشتان ما بين اليزيدين في الندى يـزيـد سليـم والأغـرّ بـن حـاتـم

بمالك[١] يسير. ونزلنا بعده بمجلس يطيب سماعه، ويروق استطلاعه. وحضرنا له مجلساً ثالثاً يوم السبت الثالث عشر لصفر بالموضع المذكور، بإزاء داره على الشط الشرقي فأخذت معجزاته البيانية مأخذها فشاهدنا من أمره عجباً صعَّد بوعظه أنفاس الحاضرين سحباً، وأسال من دمعهم وابلاً سكباً[٢]، ثم جعل يردّد في آخر مجلسه أبياتاً من النسيب شوقاً زهدياً وطرباً إلى أن غلبته الرقة فوثب من أعلى منبره والهاً مكتئباً، وغادر الكل متندماً على نفسه منتحباً، لهفان ينادي يا حسرتا! واحربا!. والنادبون يدورون بنحيبهم دور الرحا، وكل منهم بعدُ من سكرته ماصحا[٣]

* * *

(١) هو مالك بن نويرة قتله سيدنا خالد بن الوليد (رضي الله عنه) وكان أخوه متمم شديد الحب له طويل الحزن عليه وكان الناس يعزونه ويذكرون له من قتل من فتيان العرب ويتأسى بهم فيقول: فتى ولا كمالك.

(٢) وابلاً سكباً أي المطر الشديد مع الهطلان الدائم.

(٣) رحلة ابن جبير.

مهـر المحبَّـة وَالجَنّـة

للعلاّمة ابن القيم[1] رحمه الله تعالى

ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم ، فقال : ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٠]. ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة وكان محرماً ، ثم مأذوناً به ، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال ، ثم مأموراً به لجميع المشركين؛ إما فرض عين على أحد القولين ، أو فرض كفاية على المشهور. والتحقيق أن جنس الجهاد فرض عين إما بالقلب و إما باللسان وإما بالمال وإما باليد ، فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع. أما الجهاد بالنفس ففرض كفاية ، وأما الجهاد بالمال ففي وجوبه قولان والصحيح وجوبه لأن الأمر بالجهاد به وبالنفس في القرآن سواء ، كما قال تعالى : ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة : ٤١]. وعَلَّقَ النجاة من النار به ومغفرة الذنب ودخول الجنة.

---

(١) أبو عبد الله محمد شمس الدين المعروف بابن قيم الجوزية كان آية من آيات الله في غزارة العلم والتنوّع في الفضائل وحسن التأليف وكثرة العبادة. وكان من أجلّ تلامذة الإمام ابن تيمية رحمه الله. له اليد الطولى في جميع العلوم الدينية ، وهو صاحب التصانيف الكثيرة كزاد المعاد ، وأعلام الموقعين ، ومدارج السالكين شرح منازل السائرين ، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ، وكتاب الروح ، وشفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، وغيرها. تمتاز كتابته بالإشراق الروحي والعذوبة والسلاسة. توفي في ٢٣ رجب سنة ٧٩١هـ.

فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٢]. وأخبر أنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم ما يحبون من النصر والفتح القريب. فقال: ﴿ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ ﴾ [الصف: ١٣] أي ولكم خصلة أخرى تحبونها في الجهاد وهي نصر من الله وفتح قريب. وأخبر سبحانه أنه: ﴿ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ ﴾ [التوبة: ١١١] وأعاضهم عليها الجنة، وإن هذا العقد والوعد قد أودعه أفضل كتبه المنزلة من السماء وهي التوراة والإنجيل والقرآن، ثم أكد ذلك بإعلامهم أنه لا أحد أوفى بعهده منه تبارك وتعالى، ثم أكد ذلك بأن أمرهم بأن يستبشروا ببيعهم الذي عاقدوه عليه، ثم أعلمهم أن ذلك هو الفوز العظيم. فليتأمل العاقد مع ربه عقد هذا التبايع ما أعظمَ خطَره وأجلَّه! فإن الله عز وجل هو المشتري، والثمن جناتُ النعيم والفوزُ برضاه والتمتّعُ برؤيته هناك. والذي جرى على يده هذا العقدُ أشرفُ رسله وأكرمُهم عليه من الملائكة والبشر، وإن سلعةً هذا شأنها لقد هُيئتْ لأمرٍ عظيمٍ وخَطبٍ جسيمٍ:

قَـدْ هَيَّـؤوكَ لأمـرٍ لـو فطِنْـتَ لـه ... فَارْبأْ بنفسكَ أن تَرْعى مع الهَمَلِ

مهر المحبة والجنة بذلُ النفس والمال لمالكهما الذي اشتراهما من المؤمنين فما للجبان المُعرضِ المُفْلسِ وسَوْم هذه السلعة، بالله! ما هزلت فيستامها المفلسون، ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون. لقد أقيمت للعرض في سوق منْ يزيد فلم يرض ربها لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخر البطالون وقام المحبون ينتظرون أيهم يصلح أن يكون نفسه الثمن. فدارت السلعة بينهم، ووقعت في يد أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلي حرقة الشجي فتنوع

المدعون في الشهود فقيل لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]. فتأخر الخلق كلهم وثبت أتباع الرسول في أفعاله وأقواله وهديه وأخلاقه فطولبوا بعدالة البينة، وقيل لا تقبل العدالة إلا بتزكية: ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤] فتأخر أكثر المدعين للمحبة، وقام المجاهدون. فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم، فسلموا ما وقع عليه العقد، فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وعقد التبايع يوجب التسليم من الجانبين. فلما رأى التجار عظمة المشتري وقدر الثمن، وجلالة قدر من جرى عقدُ التبايع على يديه، ومقدار الكتاب الذي أثبت فيه هذا العقد، عرفوا أن للسلعة قدراً وشأناً ليس لغيرها من السلع، فرأوا من الخسران البين والغبن الفاحش أن يبيعوها بثمن بخس دراهم معدودة، تذهب لذّاتها وشهوتها، وتبقى تبعتها وحسرتها، فإنَّ فاعل ذلك معدود في جملة السفهاء فعقدوا مع المشتري بيعة الرضوان رضاء واختياراً من غير ثبوت خيار، وقالوا: والله! لا نقيلك[1] ولا نستقيلك، فلما تم العقد وسلموا المبيع قيل لهم: قد صارت أنفسكم وأموالكم لنا، والآن فقد رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعاف أموالكم معها. ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٩] لم نبتع منكم نفوسكم وأموالكم طلباً للربح عليكم بل ليظهر أثر الجود والكرم في قبول المعيب والإعطاء عليه أجلَّ الأثمان، ثم جمعنا لكم بين الثمن والمثمَّن. تأمل ههنا قصة جابر رضي الله عنه وقد اشترى منه ﷺ بعيره، ثم وفاه الثمن وزاده ورد عليه البعير، وكان أبوه قد قُتل وهو مع النبي ﷺ في وقعة أُحد فذكَّره بهذا الفعل حال أبيه مع الله وأخبره أن الله أحياه وكلمه كفاحاً[2] وقال:

---

(١) من الإقالة.

(٢) مواجهة.

يا عبدي! تمن عليّ. فسبحان من عظم جوده وكرمه أن يحيط به علمُ الخلائق! فقد أعطى السلعة وأعطى الثمن ، ووفق لتكميل العقد وقبل المبيعَ على عيبه ، وأعاض عليه أجلَّ الأثمانِ ، واشترى عبده من نفسه بماله وجمع له بين الثمن والمثمَّن ، وأثنى عليه ، ومدحه بهذا العقد ، وهو ـ سبحانه ـ الذي وفقه الله له وشاءه منه :

فَحَيَّهَـلا إنْ كنـتَ ذا همـةٍ فقـد حدا بك حادي الشوقِ فاطوِ المراحلا
وقُـلْ لمنـادي حبّهـم ورضـاهُـمُ إذا مـا دعـا لَبَّيْـك ألفـا كَـوامـلا
ولا تنظرِ الأطلالَ[1] مِنْ دونهم فإنْ نظرتَ إلى الأطلال عُدْنَ هوائلا
ولا تنتظـرْ بـالسيـرِ رِفقـةَ قـاعـدٍ وَدَعْهُ فإنَّ الشوقَ يكفيكَ حامِلا
وخُذْ منهمُ زاداً إليهم وسِرْ على طريقِ الهُدى والحُب تصبح واصِلا
وأَحْيِ بذكراهم شِراكَ إذا دَنَتْ ركابُكَ فالذكرى تُعيدكَ عاملا
وإمّا تَخافَنَّ الكَلالَ[2] فقُلْ لها أمامكِ وِرْدُ الوَصْلِ فابغي المَناهِلا
وخُذْ قَبَساً من نورهم ثُمَّ سِرْبهِ فنورُهُمْ يهديكَ ليس المشاعلا
وحَيِّ على وادي الأراكِ فقِلْ بهِ عَساكَ تَراهُم ثَمَّ إنْ كنتَ قائلا
وإلا ففي نَعْمانَ عندي مُعَرَّفُ الـ ـأحبَّةِ فاطلُبْهُمْ إذا كُنْتَ سائلا
وإلا ففـي جَمْـعٍ بليلتِـهِ فـإنْ تَفُتْ فمنىً يا وَيْحَ مَنْ كانَ غافلا
وَحَـيِّ علـى جَنّـاتِ عَـدْنٍ فـإنَّهـا مَنازِلُكَ الأولى بها كنتَ نازلا
ولكن سباكَ الكاشِحونَ لأجلِ ذا وقفتَ على الأطلالِ تَبْكي المنازلا
وحَيِّ على يوم المزيد بجَنَّةِ الـ ـخُلودِ فجُدْ بالنَّفْسِ إن كنتَ باذلا
فَدَعْها رُسوماً دارساتٍ فما بها مَقيلٌ[3] وجاوِزْها فليسَتْ منازِلا

---

(١) جمع طلل وهو ما شخص من آثار الدار.
(٢) التعب والإعياء.
(٣) من القيلولة أي موضع القيلولة.

رُسوماً عَفَتْ [١] ينتابُها [٢] الخلق كم بها — قَتيلٌ وكـم فيها لِذا الـخلق قاتلا
وخُذْ يمنةً عنهـا على المنهج الذي — عليـه سرى وَفْـدُ الأحبَّـة آهلا
وقُلْ ساعدي يا نفسُ بالصبر ساعة — فعند اللقا ذا الكَدُّ يُصبِـحُ زائـلا
فـما هي إلا ساعة ثُـمَّ تنقضي — ويصبح ذو الأحزان فرحانَ جاذلاً [٣]

لقد حرَّك الداعي إلى الله وإلى دار السَّلام النفوس الأبيَّة والهمم العالية وأسمع منادي الإيمان من كانت له أذن واعية وأسمع الله من كان حياً فهزَّه السماع إلى منازل الأبرار وحدا به في طريق سيره فما حطت به رحاله إلا بدار القرار فقال : انتدب [٤] الله لمن خرج في سبيله لا يُخْرِجُهُ إلا إيمان بي أو تصديق برسلي أن أَرْجِعَه بما نال من أجر أو غنيمة أو أُدْخِلَهُ الجنة ، ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية ولَوَدِدْتُ أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا . وقال : مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يَتوفَّاه أن يُدْخِلَه الجنة أو يَرْجِعَه سالماً مع أجر وغنيمة ، وقال : غَدوة في سبيل الله أو رَوحة خير من الدنيا وما فيها ، وقال فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : أيما عبد من عبادي خرج مجاهداً في سبيلي ابتغاء مرضاتي ضمنت له أن أَرْجعه بما أصاب من أجر أو غنيمة ، وإن قبضته أن أغفر له وأرحمه وأدخله الجنة — [٥] .

---

(١) درست ومحت .

(٢) يأتيها مرة بعد أخرى .

(٣) فرحاً .

(٤) أجاب .

(٥) زاد المعاد .

آراء في التعليم

لابن خلدون [١]

١- كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل :

اعلم أنه مما أضرَّ الناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التأليف ، واختلافات الاصطلاحات في التعليم وتعدد طرقها ، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك . وحينئذٍ يُسَلَّم له منصب التحصيل ، فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها ، ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد [٢] لها فيقع القصور _ ولا بد _ دون رتبة التحصيل .

ويمثل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكي بكتاب المدونة مثلاً وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس ، واللخمي وابن بشير والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العتبية . وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه ثم أنه يحتاج إلى تمييز الطريقة القيروانية [٣] من القرطبية [٤] والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم والإحاطة بذلك كله . وحينئذٍ يسلم له منصب الفتيا وهي كلها متكررة

---

(١) تقدمت ترجمته في الجزء الأول .

(٢) أي تفرغ لها وجد فيها .

(٣) منسوبة إلى القيروان مدينة بناها عقبة ابن عامر الصحابي (رضي الله عنه) .

(٤) منسوبة إلى قرطبة .

والمعنى واحد والمتعلِّم مطالَبٌ باستحضار جميعها وتمييز ما بينها ، والعمر ينقضي في واحد منها .

ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الأمر دون ذلك بكثير وكان التعليم سهلاً ومأخذه قريباً ، ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد[1] عليه ، فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها .

ويمثل أيضاً علم العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب عليه وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك . وكيف يطالب به المتعلم ، وينقضي عمره دونه ، ولا يطمع أحد في الغاية منه إلا في القليل النادر ، مثل ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تآليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام ظهر من كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة لم تحصل إلا لسيبويه وابن جني وأهل طبقتهما لعظم ملكته ، وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه .

ودلَّ ذلك على أن الفضل ليس منحصراً في المتقدمين ، سيما مع ما قدمناه من كثرة الشواغب[2] بتعدد المذاهب والطرق والتآليف . ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء . وهذا نادر من نوادر الوجود وإلا فالظاهر أن المتعلم لو قطع عمره في هذا كله فلا يفي له بتحصيل علم العربية مثلاً الذي هو آلة من الآلات ووسيلة فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة ولكنّ الله يهدي من يشاء .

---

(١) جمع عادة وتجمع أيضاً عادات وعاد وعيد ، والعوائد كأنه جمع عائدة وهي المنفعة .

(٢) جمع شاغبة وهي المهيجة والمؤدية إلى الشر .

٢ ـ كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلّة بالتعليم:

ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم يولعون[١] بها ويدونون منها برنامجاً مختصراً في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن ، وصار ذلك مخلاً بالبلاغة وعسِراً على الفهم. وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريباً للحفظ ، كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه ، وابن مالك في العربية ، والخونجي في المنطق وأمثالهم؛ وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل. وذلك لأن فيه تخليطاً على المبتدىء بإلقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد. وهو من سوء التعليم كما سيأتي.

ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة[٢] للفهم بتزاحم المعاني عليها ، وصعوبة استخراج المسائل من بينها ، لأن ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة فينقطع في فهمها حَظٌّ صالح من الوقت. ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات إذا تمّ على سداده ولم تعقبه آفة فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة بكثرة ما يقع في تلك من التكرار والإحالة المفيدين لحصول الملكة التامة. وإذا اقتصر على التكرار قصرت الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة فقصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين فأركبوهم صعباً يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها ، ومن يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) أولع به أحبه وعلق به شديداً.

(٢) ما يصعب فهمها.

٣ ـ وجـه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادتــه :

اعلم أن تلقينَ العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدريج شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلا ، يلقى عليه أوّلاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب ، ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال ، ويراعى في ذلك قوة عقله ، واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن ، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم إلا أنها جزئية وضعيفة ، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله .

ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها ويستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الإجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود[١] ملكته . ثم يرجع به وقد شد فلا يترك عويصاً ولا مبهماً ولا مغلقاً إلاّ وضّحه وفتح له مقفله فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته . هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكررات وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه .

وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفادته ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها ويحسبون ذلك مراناً[٢] على التعليم وصواباً فيه ويكلفونه وعي ذلك وتحصيله ، ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها ، وقبل أن يستعد لفهمها فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجياً ، ويكون المتعلم أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال وبالأمثال الحسية . ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرّج قليلاً قليلاً بمخالفة

---

(١) تصير جيدة .

(٢) التمرين .

مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه حتى تتم الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن. وإذا ألقيت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذٍ عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كَلَّ ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه، وإنما أتى ذلك من سوء التعليم.

ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكبّ على التعلم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئاً كان أو منتهياً، ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله إلى آخره، ويحصّل أغراضه، ويستولي منه على ملكة بها ينفذ في غيره، لأن المتعلم إذا حصّل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقي وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق حتى يستولي على غايات العلم، وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم وأدركه الكَلال[1] وانطمس[2] فكره، ويئس من التحصيل وهجر العلم والتعليم والله يهدي من يشاء.

وكذلك ينبغي لك أن لا تطوّل على المتعلم في الفنّ الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها لأنه ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول الملكة بتفريقها، وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانبة للنسيان كانت الملكة أيسر حصولاً وأحكم ارتباطاً وأقرب صبغة لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكرره وإذا تنوسي الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه والله علمكم ما لم تكونوا تعلمون!.

ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم أن لا يُخلط على

---

(١) أي التعب والإعياء.

(٢) أي انمحى واندرس (القاموس: طمس).

المتعلم علمان معاً فإنه حينئذٍ قلّ أن يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر ، فيستغلقان معاً ويستصعبان ويعود منهما بالخيبة ، وإذا تفرّغ الفكر لتعلّم ما هو بسبيله مقتصراً عليه فربما كان ذلك أجدر بتحصيله والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب[١] .

* * *

(١) مقدمة ابن خلدون .

تأثير البِيئــةَ والصّناعَـة فــي الأدَب

لمحمود بن محمَّد الجونفوري[١]

والارتباطات الخياليات بالأسباب الخارجية الاتفاقية من صناعة أو عرف عام ، فتتفاوت بالأمم وليست منضبطة انضباط الارتباط العقلي والوهمي بل كثيراً ما تقارن صورة صورة في خيال أرباب صناعة خاصة أو أهل عرف لكون صناعتهم أو عرفهم جامعاً بينهما ولا تقارنهما في خيال أصحاب صناعة أخرى أو أهل عرف عام آخر كالثوب يقارب الدن[٢] ،

---

(١) الشيخ الإمام العالم الكبير محمود بن محمد العمري الجونفوري أحد نوابغ الهند ، لم يكن في زمانه مثله في العلوم الحكمية والمعارف الأدبية. وُلد بجونفور سنة ثلاث وتسعين وتسعمئة ، ونشأ في مهد جده شاه محمد ، وقرأ عليه الكتب الدرسية ثم لازم الشيخ الأستاذ محمد أفضل بن حمزة العثماني الجونفوري وأخذ عنه وأقبل على المنطق والحكمة إقبالاً كلياً حتى برز فيها وبرع أقرانه وله سبع عشرة سنة. وكان غاية في الذكاء والفطنة وسيلان الذهن وقوة الحفظ والإدراك. كان يحضر المجالس والمحافل في صغره فيتكلم ويناظر ويفحم الكبار ويأتي بما يتحير منه أعيان البلدة في العلم. قال السيد غلام علي البلجرامي في سبحة المرجان: لا ريب أنه لم يظهر بالهند مثل فاروقين: أحدهما في الحقائق وهو مولانا الشيخ أحمد السرهندي رحمه الله ، والثاني في العلوم الحكمية والأدبية وهو الملا محمود الجونفوري. وله مصنفات عديدة أشهرها: الشمس البازغة في الحكمة ، والفرائد شرح الفوائد؛ وهذا الفصل مأخوذ منه. وتوفي لتسع خلون من ربيع الأول سنة اثنتين وستين وألف بمدينة جونفور.

(٢) الراقود العظيم لا يقعد إلا أن يحفر له ج دنان.

والعفص[١] في خيال الصباغ دون الخياط ، والتمر قد يقارن الجراد في خيال العرب دون الهند. فربما يجيء الوصل لوجود الجامع الخيالي بحسب صناعة المتكلم أو المخاطب أو عرفه فيتلقاه العارف بالقبول وإن وقف له الجاهل موقف النكير فلا يستنكر قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧] ، إلاّ من يجهل أن الخطاب مع العرب وما في خيالهم إلا الإبل ، وأرض ترعاها ، وسماء تسقيهم وإياها ، وجبال هي معاقلهم[٢] عند شن الغارات. فإن العرب أعني أهل الوبر منهم لما لم يكونوا متمدنين حتى تتيسر لهم التجارات التي إنما تربح وتروج في المدن،والصناعات التي إنما تتعلم وتنتفع بها غالباً فيها ولا كانت أراضيهم جيدة الإنبات ، طيبة النبات ، غزيرة[٣] الحياض والآبار ، كثيرة العيون والأنهار حتى يتمكنوا من الزراعة والفلاحة،لا جرم نيطت معيشتهم بالمواشي. ولما كانت الإبل أجلها منفعة وأقلها مؤنة عقدت بها هممهم فهي أول ما هو مركوز في ضمائرهم مستحضر في خواطرهم. ثم لما كان بقاؤها والانتفاع بها لا يتحصّل إلا بأن ترعى وتشرب كان جل مرمى غرضهم نزول المطر،وأهم مسارح[٤] نظرهم السماء،ثم لاضطرارهم إلى التحصن لشن الغارات بينهم وشيوع الواقعات فيهم إذ لم يكونوا متدينين في الجاهلية بشريعة تزجرهم عن المفسدة ، ولا منقادين لسياسة تحجز[٥] عن الفتنة كانت أعناق قلوبهم ممتدة إلى الجبال التي هي معاقلهم وحصونهم. وإذ تعذر طول مكثهم بمواشيهم في منزل كان التنقل من أرض تمتعوا بمائها ومرعاها إلى أرض معشبة[٦] سواها من عزم الأمور

(١) دواء معروف يقال له بالفارسية مازو.
(٢) جمع معقل الملجأ.
(٣) كثيرة.
(٤) هي المواضع التي يجول فيها النظر.
(٥) تمنع.
(٦) كثيرة العشب.

عندهم. فلذلك أمروا في مقام الاستدلال بالأثر على المؤثر بالنظر في أقرب الصور حضوراً عندهم فالأقرب على الترتيب ، ولك أن تقول أقرب الصور عندهم هي الإبل. ثم لما كانت السماء والجبال والأرض مستحضرة عندهم بعدها انتقل إليها من أعلاها إلى أسفلها بالترتيب ، وإذ قد عرفت عدم انضباط الخيالات واختلافها باختلاف العادات مع ابتناء ما هو من معضلات[١] مباحث الفن أعني معرفة حسن الوصل وقبحه على معرفتها جداً علمت احتياج صاحب المعاني إلى بذل الجهد في التدرب[٢] فيها ، ولها في فن البلاغة منافع أخرى مهمة فإن التبحر في التشبيهات والاستعارات وغيرها من شعوب الكلام أيضاً مبني على معرفة الصور الخيالية ووضوحها وخفائها وتناسبها وتجانبها.

ولا بأس في أن نملي عليك من ملح الأخبار والأشعار ما يفيدك زيادة في الاستبصار:

يحكى أن صاحبَ سلاحِ ملكٍ وصائغاً وصاحب بقرة ومعلم صبية[٣] انتظمهم سلك طريق فركبوا مركب الجد ووصلوا سير النهار بسير الليل الأليل[٤]. فبينا هم في وحشة الظلام ومقاساة خوف الضلال والزلل آنسهم البدر بوجهه الكريم وأضاءت لهم أنواره كل مظلم بهيم[٥] ، فأفاض كل منهم في ثنائه وترشيح بأحلى ما في إنائه فشبهه السلاحي بالترس المذهب يرفع عند الملك ، والصائغ بالسبيكة من الإبريز تفتر عن وجهها البوتقة[٦] ، والبقار بالجبن الأبيض يخرج من قالبه

(١) مشكلات.
(٢) أي التعود.
(٣) جمع صبي.
(٤) أي الطويل الشديد السواد.
(٥) أي الأسود.
(٦) الوعاء الذي يذيب فيه الصائغ المعدن.

طرياً[١] والمعلم برغيف أحمر يصل إليه من بيت ذي مروءة.

ويحكى عن وراق يصف حاله: عيشي أضيق من محبرة[٢]، وجسمي أدق من مسطرة[٣]، وجاهي أرق من الزجاج، وحظي أخفى من شق القلم، وبدني أضعف من قصبة، وطعامي أمر من العفص، وشرابي أشد سواداً من الحبر[٤].

وسوء الحال ألزم بي من الصمغ، وروى لحداد:

مطارق[٥] الشوق في قلبي لها أثرُ	يطرقْنَ سندانَ قلبٍ حشوُهُ فِكَرُ
ونارُ كيرِ الهوى في القلب مضرمةٌ	ومبردُ[٦] الشوقِ لا يُبقي ولا يَذَرُ

ولطبيب:

شربتُ لكم في القلبِ منّيَ شَرْبةً	لتُطْفي بها ناري وَيهْدَا[٧] وساوسي
بعناب بين مع سبستان سلوة	وإجاص هجران وتربد آنس
وصَفَّيْتُهُ حتى إذا عمل الدواء	طرحت هواكم بين خمس مجالس[٨]

---

(١) غضاً ليناً.

(٢) الدواة.

(٣) ما يسطُر به الكُتّاب.

(٤) المداد.

(٥) جمع مطرقة آلة معروفة للحدادين يضربون بها على السندان، السندان هو ما يطرق عليه الحديد.

(٦) آلة للحدادين يقال له بالفارسية سوهان.

(٧) يسكن.

(٨) قال صاحب الفرائد في حاشيته عليها يخاطب الأحبة ويخبرهم عن ذهاب هواهم عن قلبه وتسليه عن حبهم فيقول: إني عالجت قلبي بدواء مسهل يسهل الأخلاط الرديئة والمواد الفاسدة من وساوس الهوى وهواجس الصبى فركب الدواء من العناب والسبستان والإجاص والتربد فإن ذلك دواء معروف لتليين الطبيعة وإسهال المواد الردية من غير عنف، وفسر العناب بالبين أي الفراق وأراد به بعد المسافة فأضاف العناب إلى البين إضافة بيان على نحو لجين الماء وذلك لأن البين يورث فتوراً في الحب وسلواً عن الحبيب، وكذلك أضاف السبستان إلى السلوة =

وقال بعضهم بعد ما أنشد للأمير سيف الدولة في وصف قوس قزح:

وساق صبيح الصبوح دعوته فقام وفي أجفانه سنة الغمض[١]

يطوف بكأسات العقار[٢] كأنجم فما بين منقض علينا ومنفض

وقد نشرت أيدي الجنوب[٣] مطارفا[٤] على الجود كنا[٥] والحواشي على الأرض

يطرزها قوس السحاب بأحمر على أصفر في أخضر تحت مبيض

كأذيال خود[٦] أقبلت في غلائل[٧] مصبغة والبعض أقصر من بعض[٨]

إن هذا من التشبيهات الملوكية التي لا يكاد يحضر مثلها للسوقة[٩]

= والإجاص إلى الهجران وأراد به قطع الألفة وترك الصحبة لا بعد المسافة حتى لا يلزم التكرار، وأضاف التربد إلى الآنس أي المصاحب الذي هو غيرهم يؤنسه ويتسلى بصحبته عنهم؛ ثم قال: لما عمل الدواء طرحت هواهم بين خمس مجالس كما يطرح الثقل والأخلاط بعد المسهل بين خمس مجالس في الخلاء أي خمس مرات.

(١) النوم.

(٢) الخمر.

(٣) بالفتح الريح التي تقابل الشمال.

(٤) جمع مطرف بكسر الميم وضمها رداء من خز ذو أعلام.

(٥) جمع أدكن من الدكنة وهو لون يضرب إلى السواد.

(٦) المرأة الشابة.

(٧) جمع غلالة شعار يلبس تحت الثوب.

(٨) يقول إن الساقي لما كان في سنة الغمض وطاف بكأسات العقار في تلك الحالة لم يتمالك عن كأسات العقار المتلألئة كالأنجم فمنها ما كانت ساقطة من يده كالكوكب المنقض من السماء مجتمعاً ومنها ما كانت متفرقة رشحاتها كالكوكب المتفرق نوره في الجو.

(٩) الرعية.

وبالجملة فإن تخالف الأنام في شجون[١] الكلام يبتني غالباً على اختلاف الصور في خزائن خيالاتهم غيبة وحضوراً وخفاء وظهوراً وائتلافاً واختلافاً لتباين مذاهبهم واختلاف مشاربهم.

ومن ههنا ترى الشعراء من العرب العرباء قلما يجاوزون ذكر النوق والجمال والأدوية والجبال والبطائح[٢] والرمال والدمن[٣] والأطلال[٤] ويلوح من أشعارهم آثار الجدب والجوع وحرش الضب واليربوع واستيطان المفازة والبوادي والاستئناس بالوحوش الصوادي[٥] لكن الله تعالى لَيّنَ لهم الحديد وهون عليهم الشديد فترى كلامهم أسهل من الماء مع أنه أجزل من الصخرة الصماء وتخاله مع صعوبة أسلوبه ووعورة شعوبه أرق من دمع المستهام[٦] وأروق من راح رقرق بماء الغمام.

وأما المولدون فلما نشؤوا في الحضارة ونادموا أولي الإمارة وذاقوا حلاوة العيشة وغطفها وشاهدوا زهرة الدنيا وخرفها وَشّحوا عباراتهم بالجواهر والدرر وضمخوا استعاراتهم بالمسك والعنبر وتفرجت في حدائق أشاعرهم الأنوار والأزهار وتجثجثت[٧] في رياض حوارهم العيون والأنهار وحسنت أبيات قصائدهم بالديباج والوشي وزينت خرائد مقاصدهم بالحرير والحلي ولذلك راجت بضاعتهم عند المتأخرين من الرواة والأدباء فأحلوها المقام العالي وربحت لدى المتظرفين من الولاة والأمراء فشروها بكل ثمن غالٍ وأما الناقد البصير الماهر النحرير فلا يغتر

---

(١) جمع شجن بالتحريك الغصن ومنه الحديث ذو شجون.

(٢) جمع بطحاء مسيل واسع فيه رمل ودقاق الحصى.

(٣) جمع دمنة وهي آثار الدار.

(٤) جمع طَلَل وهو الشاخص من الآثار.

(٥) جمع صادية من الصدى وهو العطش.

(٦) أي الهائم.

(٧) أي تسلسلت.

بزبرجهم ولا ينخدع ببهرجهم ولقد أنطق الله تعالى المتنبي بالحق حيث قال:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب[١]

* * *

(١) الفرائد.

المَدنيَّـة الغربيَّـة

للسيد مصطفى لطفي المنفلوطي[١]

سأودّع في هذه النظرة الخيال والشعر وَداع من يعلم أن الأمر أعظم شأناً وأجل خطراً من أن يعبث فيه العابث بأمثال هذه الطرائف التي هي بالهزل أشبه منها بالجدّ. والتي إنما يلهو بها الكاتب في مواطن فراغه ولعبه لا في مواطن جدّه وعمله.

إن في أيدينا معشر الكتاب من نفوس هذه الأمة وديعة يجب علينا تعهّدها ، والاحتفاظ بها ، والحدب[٢] عليها حتى نؤديها إلى أخلافنا من بعدنا كما أدّاها إلينا أسلافنا سالمة غير مأروضة[٣]. ولا متأكّلة[٤] ، فإن فعلنا فذاك وإلا فرحمة الله على الصدق والوفاء ، وسلام على الكتاب الأمناء!

الأمة المصرية أمة مسلمة شرقية ، فيجب أن يبقى لها دينها وشرقيتها ما جرى نيلها في أرضها ، وذهبت أهرامها[٥] في سمائها ، حتى تبدّل

---

(١) تقدمت ترجمته في الجزء الأول.

(٢) الحدب على الشيء التعطف عليه والعناية به.

(٣) التي أكلتها الأرضة.

(٤) المنخورة.

(٥) جمع هرم وهو المخروط المضلع الذي تكون قاعدته مثلثة أو مربعة أو كثيرة الأضلاع وهي مقابر الملوك المشهورة في مصر.

الأرض غير الأرض والسماوات. إن خطوة واحدة يخطوها المصري إلى الغرب تدني إليه أجله، وتدنيه من مهوى[١] سحيق[٢] يقبر فيه قبراً لا حياة من بعده إلى يوم يبعثون.

لا يستطيع المصري ـ وهو ذلك الضعيف المستسلم ـ أن يكون من المدنية الغربية إن داناها إلا كالغربال[٣] من دقيق الخبز يمسك خشارة[٤]، ويفلت لبابه، أو الراووق[٥] من الخمر يحتفظ بعقاره، ويستهين برحيقه، فخير له أن يتجنبها جهده، وأن يفر منها فرار السليم من الأجرب[٦].

يريد المصري أن يقلّد الغربي في نشاطه وخفته، فلا ينشط إلا في غدواته وروحاته وقعدته وقومته، فإذا جد الجدّ وأراد نفسه على أن يعمل عملاً من الأعمال المحتاجة إلى قليل من الصبر والجلد[٧] دب الملل إلى نفسه دبيب الصهباء[٨] في الأعضاء، والكرى[٩] بين أهداب[١٠] الجفون.

يريد أن يقلّده في رفاهيته ونعمته فلا يفهم منهما إلا أن الأولى التأنث في الحركات والثانية الاختلاف إلى مواطن الفسق ومخابىء[١١] الفجور.

---

(١) ما بين الجبلين ونحو ذلك ج مهاوٍ.
(٢) البعيد.
(٣) المنخل ج غرابيل.
(٤) الرديء من كل شيء، ما لا لب له من الشعير.
(٥) المصفاة.
(٦) من أصابه الجرب.
(٧) الصبر والقوة.
(٨) الخمر.
(٩) النوم.
(١٠) جمع هدب وهو شعر أشفار العينين.
(١١) جمع مخبأ وهو موضع الاختباء.

يريد أن يقلّده في الوطنية فلا يأخذ منها إلا نعيقها[١] ونعيبها ، وضجيجها[٢] وصفيرها ، فإذا قيل له : هذه المقدمات فأين النتائج ؟ أسلم رجليه إلى الرياح الأربع واستن[٣] في فراره استنان المهر[٤] الأرن[٥] فإذا سمع صفير الصافر مات وجلاً ، وإذا رأى غير شيء ظنه رجلاً .

يريد أن يقلّده في السياحة فلا يزال يترقب فصل الصيف ترقُّبَ الأرض الميتة فصل الربيع ، حتى إذا حان حينه طار إلى مدن أوربا طيران حمام الزاجل[٦] لا يبصر شيئاً مما حوله ، ولا يلوي على شيء مما وراءه ، حتى يقع على مجامع اللهو ومكامن الفجور وملاعب القمار ، وهنا يبذل من عقله وماله ما يعود فقير الرأس والجيب ، لا يملك من الأول ما يقوده إلى طريق السفينة التي تحمله في أوبته ، ولا من الثاني أكثر من الجعالة[٧] التي يجتعلها[٨] منه صاحب الجريدة ليكتب له بين حوادث صحيفته حادثة عودته موشاة[٩] بجمل الإجلال والاحترام مطرزة[١٠] بوشائح[١١] الإكرام والإعظام .

يريد أن يقلّده في العلم فلا يعرف منه إلا كلمات يرددها بين شدقيه

---

(١) صوت الغراب وكذا النعيب .

(٢) الصياح .

(٣) استن الفرس في جريه أي عدا إقبالاً وإدباراً .

(٤) ولد الفرس ج مِهار وأمهار ومِهارة .

(٥) النشيط .

(٦) هو الذي يعودونه الطيران برسالة يعلقونها بعنقه إلى حيث عودوه أن يطير .

(٧) بتثليث الجيم أجر العامل .

(٨) أي يأخذها .

(٩) المُنَقَّشَة يقال وشّى الثوب أي حسّنه بالألوان ونمنمه ونقشه .

(١٠) المزينة بالخيوط الملونة والرسوم وما شاكلها .

(١١) جمع وشاح بضم الواو وكسرها شبه قلادة من نسيج عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها ويجمع أيضاً على وُشح وأوشحة .

ترديداً لا يلجأ فيه إلى ركن من العلم وثيق ، ولا يعتصم به من جهل شائن .

يريد أن يقلّده في الإحسان والبرّ فيترك جيرانه وجاراته يطوون حنا الضلوع على أمعاء تلتهب فيها نار الجوع التهاباً حتى إذا سمع دعوة إلى اكتتاب في فاجعة نزلت في القطب الشمالي أو كارثة ألمّت بسدّ يأجوج ومأجوج سجّل اسمه في فاتحة الكتاب ، ورصد هبته في مستهلّ جريدة الحساب .

يريد أن يقلّده في تعليم المرأة وتربيتها فيقنعه من علمها مقالة تكتبها في جريدة أو خطبة تخطبها في محفل ، ومن تربيتها التفنن في الأزياء والمقدرة على استهواء النفوس ، واستلاب الألباب .

هذا شأنه في الفضائل الغربية يأخذها صورة مشوهة وقضية معكوسة ، لا يعرف لها مغزى ، ولا ينتحي بها مقصداً ، ولا يذهب فيها إلى مذهب فيكون مثله كمثل جهلة المتدينين الذين يقلدون السلف الصالح في تطهير الثياب وقلوبهم ملأى بالأقذار والأكدار ويجارونهم في أداء صور العبادات وإن كانوا لا ينتهون عن فحشاء ولا عن منكر ، أو كمثل الذين يتشبهون بعمر رضي الله عنه في ترقيع الثياب وإن كانوا أحرص على الدنيا من صيارفة اليهود .

أما شأنه في رذائلها فإنه أقدر الناس على أخذها كما هي فينتحر كما ينتحر الغربي ويلحد كما يلحد ويستهتر في الفسوق استهتاره ويترسم في الفجور آثاره .

إن في المصريين عيوباً جمة ، في أخلاقهم وطباعهم ومذاهبهم وعاداتهم ، فإن كان لا بدّ لنا من الدعوة إلى إصلاحها فلندع إلى ذلك باسم المدنية الشرقية لا باسم المدنية الغربية .

إن دعوناهم إلى الحضارة فلنضرب لهم مثلاً بحضارة بغداد وقرطبة

وثيبة وفينيقيا ، لا بباريس وروما وسويسرة[١] ونيويورك. وإن دعوناهم إلى مكرمة فلـنَتلُ عليهم آيات الكتب المُنَزَّلَة وأقوال أنبياء الشرق وحكمائه ، لا آيات روسو وباكون ونيوتن وسبنسر[٢]. وإن دعوناهم إلى حرب ففي تاريخ خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وموسى بن نصير وصلاح الدين ما يغنينا عن تاريخ نابليون وولنجتون وواشنطون ونلسن ويلوخر[٣] ، وفي وقائع القادسية وعمورية وإفريقية والحروب الصليبية

---

(١) Thebes مدينة قديمة في مصر ، كانت عاصمة الشمال ، يقال إن مدة حكمها بين ١٦٠٠ قبل الميلاد وبين ١١٠٠ قبل الميلاد ولا تزال آثارها وأطلالها موجودة على بعد ٣٠٠ ميل من القاهرة في الجهة الشمالية الشرقية.
- فينيقيا(Phoenicia) منطقة ممتدة من ساحل البحر إلى جبل لبنان ، نهض فيها الساميون في عام ١٥٠٠ ق.م ودام حكمهم إلى ٧٥٠ ق.م ، وكانت منطقة مشهورة في الحرف والصناعات.
- سويسرة (Suisse) جمهورية اتحادية واقعة في أوربا الوسطى ، عاصمتها برن ، تتكلم أربع لغات: الفرنسية ، الألمانية ، الإيطالية ، الرومانشية.

(٢) روسو (Rousseau) (١٧١٢ - ١٧٧٨م) فيلسوف فرنسي وكاتب ، نال كتابه: (Social Gontract) قسطاً أوفر من الشهرة والقبول بالنسبة إلى أعماله الأدبية الأخرى ، فقد كان هذا الكتاب هو الدافع الأكبر وراء الحركات الثورية في أوربا.
- باكون (Roger Bacon) (١٢١٤ - ١٢٩٤م) راهب فرنسي حبس في السجن بتهمة السحر لعدة سنوات ، ودعا بدعوة البحث عن الحق والحرية في العلوم ، واخترع أشياء ، منها المجهرة ، والمضخة الهوائية ، وكتب مقالات في العلوم الطبيعية.
- نيوتن (Sir Isaac Newton) (١٦٤٢ - ١٧٢٧م) فيلسوف إنجليزي ، اكتشف جاذبية الأرض لأول مرة.
- سبنسر (Herbert Spencer) (١٨٢٠ - ١٩٠٣م) فيلسوف إنجليزي له مؤلفات ومقالات في علم الحياة ، وعلم الأخلاق ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس. أهم مؤلفاته: (Synthetic Philosophy) الذي قدم فيه فلسفة جديدة على أساس الربط والجمع بين نظريات مختلفة تسمى «فلسفة النفعية» (Utilitarianism).

(٣) - نابليون (Napoleun) (١٧٦٩ - ١٨٢٤) قائد فرنسي معروف ، احتلّ عرش =

ما يغنينا عن وقائع واترلو وترافلغار وأوستر ليتز والسبعين[١].

إن عاراً على التاريخ المصري أن يعرف المسلم الشرقي في مصر من تاريخ بونابارت ما لا يعرف من تاريخ عمرو بن العاص، ويحفظ من تاريخ الجمهورية الفرنسية ما لا يحفظ من تاريخ الرسالة المحمدية، ومن مبادىء ديكارت وأبحاث داروين[٢]. مالا يحفظ من حكم الغزالي

= فرنسا وفتح أكثر البلدان الأوربية، حتى لاقى هزيمة نكراء في «واترلو» (Waterloo) وتخلّى عن عرش الحكم.

ـ ولنجتون (Wellington) (١٧٦٩ ـ ١٨٥٢م) قائد إنجليزي معروف، والفضل في شهرته يعود إلى كسره لـ«نابليون» وحبسه له.

ـ واشنطون (George Washington) (١٧٣٢ ـ ١٧٩٩م) مؤسس الولايات المتحدة الأمريكية ورئيسها الأول، خاض حرباً لتحرير أمريكا من ربقة الاستعمار البريطاني.

ـ نلسن (Horatio Nelson) (١٧٥٨ ـ ١٨٠٥م) أمير البحر البريطاني، إنه هزم القوة البحرية المتحدة لفرنسا وإسبانيا في معركة «ترافلغار» (Trafalgar) (وأصله «طرف الغار») في ٢٧ أكتوبر عام ١٨٠٥م، ولكنه جرح في نفس المعركة ومات.

ـ بلوخر (Bluicher) قائد روسي، دحر حملة نابليون على روسيا في عام ١٨١٥م، وردّها على أعقابها.

(١) ـ أوسترليتز (Austerlitz) مدينة في «تشيكو سلوفاكيا» حيث هزم «نابليون» القوات المتحدة لكل من روسيا والنمسا.

ـ «السبعين» (Seven Years) عنوان حرب دارت بين إمبراطور روسيا «فريدرك» (Fredrick The Great) و«ماريا تريزا» (Maria Theresa) ملكة النمسا، سبع سنين، وذلك من سنة ١٧٥٦م إلى سنة ١٧٦٣م، واكتوت بنارها الدول الأوربية كلها، وكانت صدمة عنيفة لسياسة المستعمرات للحكومة الفرنسية واشتدت قبضة الحكم الإنجليزي على أمريكا الشمالية والهند.

(٢) ـ «بونابارت» هو «نابليون» نفسه، وقد تقدّم ذكره.

ـ «ديكارت» (Rene Descartes) مؤسس فلسفة جديدة جعل التشكيك أساسها، كما أنّه وضع نظرية (Algebraic Geometry).

ـ «داروين» (Charles Robert Darwin) (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢م) عالم بريطاني =

وأبحاث ابن رشد ، ويروي من الشعر لشكسبير وهوجو[١] ما لا يروي للمتنبي والمعرّي .

لا مانع من أن يعرّب لنا المعرّبون المفيد النافع من مؤلفات علماء الغرب والجيد الممتع من أدب كتّابهم وشعرائهم على أن ننظر فيه نظر الباحث المنتقد لا الضعيف المستسلم ، فلا نأخذ كل قضية علمية مسلّمة ولا نطرب لكل معنى أدبي طرباً متهوّراً ، ولا مانع من أن ينقل إلينا الناقلون شيئاً من عادات الغربيين ومصطلحاتهم في مدنيتهم على أن ننظر إليه نظر مَنْ يريد التبسط في العلم والتوسع في التجربة والاختبار ، لا على أن نتقلّدها وننتحلها ونتخذها قاعدتنا في استحسان ما نستحسن من شؤوننا واستهجان ما نستهجن من عاداتنا .

وبعد: فليعلم كُتَّابُ هذه الأمة وقادتها أنه ليس في عادات الغربيين وأخلاقهم الشخصية الخاصة بهم ما نحسدهم عليه كثيراً ، فلا يخدعوا أمتهم عن نفسها ولا يفسدوا عليها دينها وشرقيتها. ولا يزينّوا لها تلك المدنيّة تزييناً يرزؤها في استقلالها النفسي ، بعد ما رزأتها السياسة في استقلالها الشخصي[٢] .

* * *

= شهير في علم الأحياء وهو صاحب نظرية «النشوء والارتقاء» المشهورة.

(١) ـ «شكسبير» (William Shakespeare) (١٥٦٤ ـ ١٦٢٦م) شاعر إنجليزي وكاتب مسرحي شهير ، وكان يمارس التمثيل أيضاً ، له مسرحيات تُعَدُّ من روائع الأدب الإنجليزي ومفاخره.
ـ «هوجو» (Victor-Marie Hugo) (١٨٠٢ ـ ١٨٨٥م) شاعر فرنسي وروائي ، بدأ الكتابة وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وأنتج عدداً ضخماً من المسرحيات والقصص والمقالات والدواوين.

(٢) النظرات .

وحيُ الهِجْرَة

للسيد مصطفى صادق الرافعي[١]

نشأ النبي ﷺ في مكة ، واستنبىء على رأس الأربعين من سنّه ، وغبر[٢] ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله قبل أن يهاجر إلى المدينة ، فلم يكن في الإسلام أول بدأته إلاّ رجل وامرأة وغلام ، أما الرجل فهو ﷺ ، وأما المرأة فزوجه خديجة ، وأما الغلام فعليّ ابن عمه أبي طالب.

ثم كان أول النموّ في الإسلام بحرّ وعبد! أما الحر فأبو بكر ، وأما العبد فبلال. ثم اتسق[٣] النموّ قليلاً قليلاً ببطء الهموم في سيرها ، وصبر

(١) السيد مصطفى صادق الرافعي أديب راسخ لا يزلّ ولا ينحرف ، وصَيْرَفي حاذق. كأن كلماته دنانير مصقولة ، يلفظ الدر وينفث السحر وإذا حكى حادثة قديمة أو بنى على أساس رواية تاريخية أو جملة فكأنما ردَّ التاريخ على أعقابه ، وإذا قلد ابن المقفع أو تنكّر به فكأنما أبرز نسخة خطية لكتاب «كليلة ودمنة» وناهيك بما قال الأمير شكيب أرسلان ما معناه أن العربية لم تنجب مثله من عدة قرون ، إلا أنه قد يغلو في التفلسف في الأدب ويُعقِّد. توفي في العاشر من مايو سنة ١٩٣٧ م. له إعجاز القرآن ، ووحي القلم مجموع مقالات له ، ورسائل أدبية عديدة.

(٢) مكث بابه نصر.

(٣) انتظم.

الحر في تجلّده ، وكأن التاريخ واقف لا يتزحزح[١] ضيق لا يتسع ، جامد لا ينمو! وكأن النبي ﷺ أخو الشمس يطلع كلاهما وحده كل يوم ، حتى إذا كانت الهجرة من بعد فانتقل الرسول إلى المدينة ، بدأت الدنيا تتقلقل[٢] كأنما مرّ بقدمه على مركزها فحرّكها ، وكانت خطواته في هجرته تخط في الأرض ، ومعانيها تخط في التاريخ ، وكانت المسافة بين مكة والمدينة ، ومعناها بين المشرق والمغرب.

لقد كان في مكة يعرض الإسلام على العرب كما يعرض الذهب على المتوحشين يرونه بريقاً وشعاعاً ثم لا قيمة له. وما بهم حاجة إليه وهو حاجة بني آدم إلا المتوحشين وكانوا في المحادة[٣] والمخالفة الحمقاء. والبلوغ بدعوته مبلغ الأوهام والأساطير ، كمايكون المريض بذات صدره مع الذي يدعوه في ليلة قارّة[٤] إلى مداواة جسمه بأشعة الكواكب ، وكانت مكة هذه صخراً جغرافياً يتحطم[٥] ولا يلين. وكأنّ الشيطان نفسه وضع هذا الصخر في مجرى الزمن ليصدَّ به التاريخ الإسلامي عن الدنيا وأهلها.

وأُوذِيَ رسول الله ﷺ وكُذِّب وأُهين ، ورجف به الوادي يخطو فيه على زلازل تتقلب ،ونابذه[٦] قومه ، وتذامروا[٧] فيه ، وحضّ بعضهم بعضاً عليه ، وانصفق[٨] عنه عامة الناس ، وتركوه إلا من حفظ الله منهم. فأُصيب كبيراً باليتم من قومه ، كما أُصيب صغيراً باليتم من أبويه. وكان

(١) لا يتنحّى.
(٢) تتحرك.
(٣) المعاداة.
(٤) الباردة.
(٥) ينكسر.
(٦) خالفه وفارقه عن عداوة.
(٧) تحاضوا على القتال.
(٨) انصرف وارتد وردع.

لا يسمع بقادم يقدُمُ من العرب له اسم وشرف إلاّ تصدّى[١] له. فدعاه إلى الله وعرض نفسه عليه ، ومع ذلك بقيت الدعوة تلوح وتختفي كما يشق البرق من سحابة على السماء: ليس إلاّ أن يرى ثم لا شيء بعد أن يرى.

فهذا تاريخ ما قبل الهجرة في جملة معناه ، غير أني لم أقرأه تاريخاً ، بل قرأت فيه فصلاً رائعاً من حكمة إلهية. وضعه الله كالمقدمة لتاريخ الإسلام في الأرض ، مقدمة من الحوادث والأيام تحيا وتمرّ في نسق الرواية الإلهية المنطوية على رموزها وأسرارها ، وتظهر فيها رحمة الله تعلم بقسوة ، وحكمة الله تتجلى في غموض. فلو أنت حققت النظر لرأيت تاريخ الإسلام يتألّه في هذه الحقبة[٢] ، بحيث لا تقرأه النفس المؤمنة إلا خاشعة كأنّها تصلي ، ولا تتدبره إلا خاضعة كأنها تتعبد.

بدأ الإسلام في رجل وامرأة وغلام ثم زاد حرّاً وعبداً ، أليست هذه الخمس هي كل أطوار البشرية في وجودها ، مخلوقة في الإنسانية والطبيعة ومصنوعة في السياسة والاجتماع؟ فههنا مطلع القصيدة ، وأول الرمز في شعر التاريخ.

ولبث النبي ﷺ ثلاث عشرة سنة لا يبغيه قومه إلا شراً على أنه دائب[٣] يطلب ثم لا يجد ، ويعرض ثم لا يُقبلُ منه ، ويخفق[٤] ثم لا يعتريه اليأس ، ويجهد ثم لا يتخونه[٥] الملل ، ويستمر ماضياً لا يتحرف[٦] ، ومعتزماً لا يتحول. أليس هذه هي أسمى معاني التربية الإنسانية أظهرها الله كلها في نبيه فعمل بها وثبت عليها؟ وكانت ثلاث عشرة سنة في هذا

---

(١) تعرض له.
(٢) المدة من الوقت ج حقب وحقوب.
(٣) المجتهد في العمل.
(٤) أخفق الرجل طلب حاجة فلم يدركها.
(٥) لايتنقصه.
(٦) لا ينحرف.

المعنى كعمر طفل وُلد ونشأ وأحكم تهذيبه بالحوادث حتى تسلمته[١] الرجولة الكاملة بمعانيها من الطفولة الكاملة بوسائلها.

أفليس هذا فصلاً فلسفياً دقيقاً يعلّم المسلمين كيف يجب أن ينشأ المسلم غناه في قلبه، وقوته في إيمانه، وموضعه في الحياة موضع النافع قبل المنتفع، والمصلح قبل المقلّد، وفي نفسه من قوة الحياة ما يموت به في هذه النفس أكثر ما في الأرض والناس من شهوات ومطامع؟

ثم أليست تلك العوامل الأخلاقية هي هي التي ألقيت في منبع التاريخ الإسلامي ليعبّ[٢] منها تيّاره[٣]، فتدفعه في مجراه بين الأمم، وتجعل من أخص الخصائص الإسلامية في هذه الدنيا ـ الثبات على الخطوة المتقدمة وإن لم تتقدم، وعلى الحق وإن لم يتحقق، والتبرؤ من الأَثَرة[٤] وإن شحّت عليها النفس، واحتقار الضعف وإن حكم وتسلط، ومقاومة الباطل وإن ساد وغلب، وحمل الناس على محض الخير وإن ردّوا بالشر، والعمل للعمل وإن لم يأت بشيء، والواجب للواجب وإن لم يكن فيه كبير فائدة، وبقاء الرجل رجلاً وإن حطّمه كل ما حوله؟

ثم هي هي البرهانات القائمة للدهر قيامَ المنارة في الساحل ـ على نبوة محمد ﷺ ـ تثبت ببرهان الفلسفة وعلوم النفس أنه روح، وغاياتها المحتومة بالقدر لا جسمٌ، ووسائله المتغلبة بالطبيعة، ولو كان رجلاً ابتعثته نفسه، لتمحّل[٥] الحيل لسياسته، ولأحدث طمعاً من كل مطمع ولركد مع الحوادث وهبّ، ولما استمر طوال هذه المدّة لا يتجه وهو فرد إلا اتجاه الإنسانية كلها كأنما هو هي.

---

(١) قبضته.

(٢) عب البحر عُباباً كثر موجه وارتفع بابه نصر.

(٣) موج البحر الهائج.

(٤) اختصاص المرء نفسه بأحسن الشيء دون غيره.

(٥) احتال في الطلب.

ولو هو كان رجل الملك أو رجل السياسة لاستقام والتوى[١] ولأدرك ما يبتغي في سنوات قليلة ولأوجد الحوادث يتعلق عليها ، ولما أفلت[٢] ما كان موجوداً منه يتعلق به ، ولما انتزع نفسه من محله في قومه وكان واسطة فيهم ، ولا تركَ عوامل الزمن تبعده وهي كانت تُدنيه.

قالوا: إن عمه أبا طالب بعث إليه حين كلَّمَتْه قريش فقال له: يا بن أخي! إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا فأبق[٣] عليّ وعلى نفسك ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق. فظنّ رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء[٤] وأنه خاذِلُه ومُسْلِمُه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال: يا عماه! لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته. ثم استعبر[٥] ﷺ فبكى.

يا دموعَ النبوة! لقد أثبتِّ أن النفس العظيمةَ لن تتعزّى[٦] عن شيء منها بشيء من غيرها ، كائناً ما كان لا من ذهبِ الأرضِ وفضّتها ، ولا من ذهبِ السماء وفضّتها إذا وُضعتِ الشمس في يدٍ والقمرُ في الأخرى.

وكل حوادث المدة قبل الهجرة على طولها ليست إلا دليلَ ذلك الزمن على أنه زمنُ نبيّ ، لا زمنُ ملك أوْ سياسيّ أو زعيم. ودليل الحقيقة على أن هذا اليقين الثابت ليس يقين الإنسان الاجتماعي من جهة قوته بل يقين الإنسان الإلهي من جهة قلبه ، ودليل الحكمة على أن هذا الدين ليس من العقائد الموضوعة التي تنشرها عدوى النفس للنفس ، فها هو ذا لا يبلغ

---

(١) انعطف.

(٢) فات وسبق.

(٣) أبقي عليه رحمه وشفق عليه.

(٤) أي نشأ له رأي جديد فيه وهذا كما يقولون: رجع عن رأيه.

(٥) أي جرت عبرته.

(٦) لن تتصبر.

أهله في ثلاث عشرة سنة أكثر مما تبلغ أسرة تتوالد في هذه الحقبة ، ودليل الإنساينة على أنه وحي الله بإيجاد الإخاء العالميّ والوحدة الإنسانية ، أفلم يكن خروجه عن موطنه هو تحققه في العالم؟

ثلاث عشرة سنة ، كانت ثلاثة عشر دليلاً تثبت أن النبي ﷺ ليس رجل ملك ، ولا سياسة ، ولا زعامة ، ولو كان واحداً من هؤلاء لأدرك في قليل ، وليس مبتدع شريعة من نفسه وإلا لما غبر في قومه وكأنه لم يجدهم وهم حوله. وليس صاحب فكرة تعمل أساليب النفس في انتشارها ، ولو كان لحملهم على محضها[1] وممزوجها ، وليس رجلاً متعلقاً بالمصادفات الاجتماعية ، ولو هو كان لجعل إيمان يوم كفر يوم ، وليس مُصلح عشيرة يهذّب منها على قدر ما تقبل منه سياسة ومخادعة ، ولا رجل وطنه تكون غايته أن يشمخ[2] في أرضه شموخَ جبلٍ فيها دون أن يحاول ما بلغ إليه من إطلاله[3] على الدنيا إطلال السماء على الأرض ، ولا رجل حاضره إذ كان واثقاً دائماً أن معه الغد وآتيه ، وإن أدبر عنه اليوم وذاهبه ، ولا رجل طبيعته البشرية يلتمس لها ما يلتمس الجائع لبطنه ، ولا رجل شخصيته يستهوي بها ويسحر ، ولا رجل بطشه يغلب به ويتسلط ، ولا رجل الأرض في الأرض ولكن رجل السماء في الأرض.

هذه هي حكمة الله في تدبيره لنبيه قبل الهجرة! قبض عنه أطراف الزمن وحصره من ثلاث عشرة سنة في مثل سنة واحدة ، لا تصدر به الأمور مصادرَها كي تثبت أنها لا تصدر به ، ولا تستحق به الحقيقة على أنها ليست من قوته وعمله.

وكان ﷺ على ذلك هو في حدود نفسه وضيق مكانه يتسع في الزمن

---

(١) الخالص الذي لم يخالطه غيره ج مِحاض.

(٢) يعلو بابه فتح.

(٣) اشرافه.

من حيث لا يرى ذلك أحد ولا يعلمه ، وكأنما كانت شمس اليوم الذي سينتصر فيه قبل أن تشرق[١] على الدنيا بثلاث عشرة سنة مشرقة في قلبه ﷺ .

والفصل من السنة لا يقدّمه الناس ولا يؤخرونه لأنه من سَيْر الكون كله ، والسحابة لا يشعلون برقها بالمصابيح ومع النبي من مثل ذلك برهان الله على رسالته إلى أن نزل قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال : ٣٩] فحلّ الفصل وانطلقت الصاعقة وكانت الهجرة .

تلك هي المقدمة الإلهية للتاريخ ، وكان طبيعياً أن يطّرد التاريخ بعدها حتى قال الرشيد للسحابة ، وقد مرت به : أمطري حيث شئتِ فسيأتيني خراجك[٢]

* * *

(١) تضيء .

(٢) وحي القلم للرافعي

تحيَّـة الأنـدلُس

للأستاذ محمد كرد علي[١]

عشقتهـا ولـم تسعـدنـي[٢] الأيـام بـإمتـاع[٣] النظـر فـي جمـالهـا ، واستطلعت[٤] طلع أخبارها فروى الرواة عنها عجائب أقلها مما يستهوي

---

(١) هو محمد كرد علي بن عبد الرزاق التاجر. أصله من أكراد الأيوبية. وُلِد سنة ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م) ، أتم الدراسة الرشدية ودراسة الثانوية وأفاد من العلامة الشيخ طاهر الجزائري والسيد سليم البخاري والشيخ محمد المبارك وتعلم الفرنسية. وكتب وهو في السادسة عشرة من عمره وحرّر أول جريدة ظهرت في دمشق وكتب في مجلة «المقتطف» وبذلك امتدّت شهرته؛ وسافر إلى مصر وحضر دروس الشيخ محمد عبده ، وتولّى تحرير جرائد ومجلات في مصر ، وأصدر «المقتبس» اليومي من دمشق ، وزار باريس سنة ١٩٠٩م وبعد انتهاء الحرب العمومية الأولى دخل في رئاسة ديوان المعارف ، وفي سنة ١٩١٩م اقترح إنشاء مجمع علمي عربي واختير أول رئيس له ، واختير مرتين للوزارة طاف في خلالهما الأقطار الأوربية وتوفي في ٢ نيسان ١٩٥٣م وهو في السابعة والسبعين ، ودفن في مقبرة الباب الصغير بجوار قبر معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما.
كان الأستاذ محمد كرد علي صحفياً ومنشئاً مترسلاً بعمل الثقافة الغربية الجديدة ، والثقافة العربية القديمة ، يمتاز أسلوبه بالرقة من غير تفخيم وسهولة في التعبير من غير تكليف ويرسل النفس على سجيتها. ومن أعظم كتبه «خطط الشام» في ستة أجزاء واسعة ، و«الإسلام والحضارة العربية» في جزأين ، وهو كتاب يرجو به من الله خيراً للدفاع عن الإسلام وبيان محاسنه ، و«أمراء البيان» في جزأين و«كنوز الأجداد» وحقق كتباً كثيرة ونشرها مصححة ومنقحة.

(٢) أسعده على الأمر عاونه وأسعده الله جعله سعيداً.

(٣) التمتع.

(٤) استطلع رأي فلان واستطلعه رأيه نظر ما عنده من رأي والطِلْع بكسر الطاء الاسم من اطّلع. =

النفوس المتمردة ويأخذ بمجامع القلوب الجافة العاصية، تفردت بين بنات جيلها[١] بما خصّت به من معاني الحسن والإحسان فكثر الخطاب والطلاب، وهي لا تفتأ تبدي لمن أم حماها صنوفاً من اللطف والظرف وتخاطب البعيد والقريب بثغر باسم وترشقهم[٢] بنظرات ، لا تخلوا من غمزات تريد بها الهزوءبنكبات الزمان، والاستخفاف بسخافة[٣] الإنسان.

عشقتها منذ عهد الصبا ، وعشق الصبا شديد ، لما قرأته الباصرة من وصف سجاياها وحملته إلى البصيرة ففكرت فيه ، وتدبرت خوافيه وحواشيه ، وزادني غراماً بها ما سمعت من أن أناساً قبلي أصيبوا بما أصبت به ، وعدّوا النزول في حماها ولو ساعة سعادة العمر ، وحسنة الدهر. العشق فنون وعشقي كان لأرض الأندلس عليها من كل عربي ألف ألف سلام على مر العصور والأيام.

عشقتها لكثرة ما تلوت من آثار من درجوا[٤] على أديمها[٥] من أبنائها وغير أبنائها ، وكانت المخيّلة تتصورها في مظاهر صح بعضها يوم اللقاء، وآخر كان بالطبع كالخيال ، في الأندلس تمّ نحو نصف مدنيّة العرب الباهرة، وقضوا في أرجائها نحو ثمانية قرون كانت بجملتها وتفصيلها عهد السعادة والغبطة[٦]، ودور ظهور النوابغ[٧] وأرباب الإبداع[٨] والقرائح[٩]. وكم من أمة من أمم الحضارة الحديثة على كثرة ما اقتبست

---

(١) الصنف من الناس ج أجيال وجيلان.
(٢) تحد النظر إليهم بابه نصر.
(٣) الضعف.
(٤) مشوا.
(٥) سطح الأرض وظهرها.
(٦) حسن الحال ، المسرة.
(٧) جمع نابغة أي الرجل العظيم الشأن.
(٨) الإجادة في العمل.
(٩) جمع قريحة وهي ملكة يقتدر بها الإنسان على الإجادة في نظم الشعر أو الكتابة.

وأوجدت ، لم يتيسر لها حتى يوم الناس هذا أن تبلغ مكانة الأندلس ، فكان هذا الصقع [١] في منقطع أرض المغرب وآخر أرض العرب بين البحرين المحيط والمتوسط برهانا أزلياً على فرط استعداد العرب للعلوم والصناعات وناعياً على من أنكروا لإفراطهم في الشعوبية [٢] فضل هذه الأمة على الحضارة .

أقام الغربيون ضروباً من المصانع من بيع [٣] وأديار ومتاحف [٤] ومكاتب ومدارس وجسور وسددو وطرق ومعابر وتماثيل ونصب [٥] وبرك ، لكنهم لم يضعوا على كثرة تفننهم في هذا الشأن منذ عهد اليونان والرومان طرزاً من البناء يكلمك ولا لسان له فيقول ، وينظر إليك فيعمل في شغاف [٦] قلبك ولا عين له فينظر ، ويطربك بتساوق [٧] نغماته من دون ما صنّاجة [٨] ولا وتر ولا ألحان .

مصانع كثيرة بقيت بقاياها في طليطلة وقرطبة وإشبيلية وغرناطة سبلتها الفتن والجهل تارة شطرا من بهائها ، وسالمتها حينا فأبقت عليها ، أو رممت شيئاً مما أضرت به عوامل الأيام وإن لم تعد إليها نضرتها الأولى .

سلام على أرض طيبة خصها الخالق بأجمل الهبات الطبيعية ، فلم ينقصها زكاء تربة في نجادها [٩] ووهادها [١٠] ، ولا مياها عذبة دافقة من

---

(١) بالضم الناحية ج أصقاع .

(٢) العصبية للجنسية والقومية وغالباً يستعملون هذه الكلمة لتصغير شأن العرب وعدم تفضيلهم على العجم .

(٣) جمع بيعة معبد للنصارى واليهود ويجمع أيضاً على بِيْعات وبِيَعات .

(٤) جمع متحف وهو المكان الذي يوضع فيه الأشياء النادرة والنفيسة والمراد به دار الآثار .

(٥) كل ما جعل علماً .

(٦) بالفتح غلاف القلب ، حبة القلب ج شُغُف وأشغفة .

(٧) التتابع .

(٨) آلة غناء .

(٩) جمع نجد ما أشرف من الأرض وارتفع .

(١٠) جمع وهدة الأرض المنخفضة .

هضابها [١] على شعابها [٢] ولا أشجاراً باسقة وزروعاً خصبة في سهلها ووعرها [٣] ، ولا اعتدال مواسم وجمال إقليم ، ومصحة [٤] أبدان ، زانها الصانع السماوي بإيجاده كما زانها الصانع الأرضي بإبداعه ، وما أجمل الطبيعي والصناعي ، إذا تواعدا إلى الاجتماع في خير البقاع .

ليالي الأنس . في جزيرة الأندلس ، وأيامها الغرّ ، في سالف الدهر ، فيك قامت سوق الآداب ، بما ارتفعت به رؤوس العرب على غابر الأحقاب ، وكمل في ربوعك [٥] الذوق العربي حتى ظن بعضهم أنك نسيت كل شيء ما عدا الأدب ، وما هذه الآثار الأبدية إلا ثمرة علمك وصناعاتك وزراعاتك .

سلام على أرواح علمائك . وفلاسفتك ونوابغك وأدبائك وأمرائك ، ما كان أرجح أحلامهم ، يوم سنوا للعرب سنة الأخذ من السعادتين ، وشرعوا لهم شرعة المدنية المثلى [٦] ، حملوا فأجملوا من الشرق إلى الغرب تعاليم في الدين والدنيا ، كانت صفوة العقول إلى عهدهم فأدهشوا من عاصرهم ، وخلفوا من الأجيال ، ونسجوا لهم على غير مثال نسيجاً رقيقاً ، كتبوا لهم فيه سجلاً رقت حواشيه ، ونظاماً متقناً في حكم الإنسان للإنسان ، يطبع في تالية إذا تدبره طبيعة حسن الذوق والطبع ، وينشئه

---

(١) جمع هضبة ما ارتفع من الأرض ويجمع أيضاً على هِضَب وهَضْب وجج أهاضيب

(٢) جمع شِعب ما انفرج بين الجبلين .

(٣) المكان الصلب ضد السهل ج أوعُر ووعور وأوعار ووُعورة .

(٤) بفتح الصاد وكسرها ما يجلب الصحة ويحفظها وأرض مصحة بريئة من الوباء .

(٥) جمع ربع الدار ويجمع أيضاً على رباع وأربع وأرباع .

(٦) مؤنث الأمثل وهو الأفضل .

على أرق مثال من الخيال في الكمال والجمال ، مثال حيّ من حضارة العرب في القارة الأوربية عامة ، وفي شبه جزيرة إسبانيا خاصة ، يفتخر به العرب على اختلاف أصقاعهم وحق لهم الفخر ، لأن الأندلس العربية الإسلامية كانت وما زالت مدرسة الغرب المسيحي ، نزل طلابه في قرونهم المظلمة على علماء العرب فأوسعوهم من مكارم أخلاقهم ، وأكرموا مثواهم بما علموهم ، وما أسخى العربي على طالب قراه[١] والمعتصم بحماه .

فلما جاء دور الانحطاط ، وأزف[٢] رحيل ذلك الرعيل[٣] من أرض كان الغرب كله يعدهم فيها أثقل دخيل ، أبقوا لهم تلك المصانع ناطقة بفضلهم معلمة لهم معاني ليست في معاجم[٤] نفائسهم ، ومكذّبة على غابر الأيام من ينكر المحسوس ، ويغمط[٥] الحق لصاحبه ، ويستهويه الغرض ، فيشوّه وجه الحق الجميل .

إلى اليوم لم يزل في الغربيين أناس يصعب عليهم الاعتراف بمزية للعرب بباعث من بواعث النفوس اللئيمـة ، فلا يكادون يصدقون حتى بما ورد عن هذه الأمة في كتبهم دَع كتبها من أعمال هذه الحضارة العربية ، وما ذاك الأثـر الضئيل الباقـي من عاديـات[٦] الأندلس العربية إلا برهان جلي على ما هناك من عدل شامل ، وعقل كامل ، ونظر نافذ ، ويد صَناع ، أربت[٧] على ما عمل من مثلها في سائر البقاع والأصقاع[٨]

* * *

(١) بالكسر النزل والضيافة .
(٢) قرب بابه سمع .
(٣) اسم كل قطعة متقدمة من خيل أو طير أو رجال ج رِعال .
(٤) جمع معجم وهو القاموس أي كتاب اللغة .
(٥) غمطه احتقره وازدرى به بابه ضرب وسمع يقال غمط الحق جحده .
(٦) الأشياء القديمة الباقية .
(٧) فاقت وزادت .
(٨) حاضر الأندلس وغابرها للأستاذ كرد علي .

اختلاف أنظار المسلمين في الإسلام والقرآن

للدكتور أحمد أمين [١]

ومسألة أخرى كبيرة الأهمية في عصرنا [٢] الذي نؤرخه تلك هي أن تصور كثير من المسلمين للإسلام في ذلك العصر يختلف عن تصور المسلمين له في العصور الأولى . فحياة العربي الساذجة البسيطة السهلة تعقدت ، والديانات المختلفة تسربت ، والأعاجم الذين كانوا وثنيين [٣] أو مانويين [٤] أو نحوهم دخلوا في الإسلام ولم تُنَقَّ رؤوسهم من كل ما علق بها من الديانات القديمة وقد عاشوا في المدنيات المركّبة المعقدّة ؛ فنظروا إلى الإسلام بعيونهم لا بالعين العربية الأولى . وحق ما يقال : إن الأمم وإن اتحدت ديناً فكل أمة يختلف نظرها في تفاصيل دينها عن الأمم الأخرى ، وهي تنظر إلى الدين من خلال تاريخها ونظمها الاجتماعية ، من خلال أديانها المتعاقبة ، ومن خلال لغاتها وتقاليدها ، ومن خلال ثقافتها وتربيتها ـ إلى غير ذلك . كل المسلمين يقولون : «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ولكن نَظَرُ العالِمِ الواسعِ الثقافةِ إلى الإسلام

(١) تقدمت ترجمته في الجزء الأول .

(٢) العصر العباسي .

(٣) عبدة الأوثان .

(٤) أتباع ماني .

غيرُ نظر العامي الجاهل ، وكلاهما غير نظر الصوفي ، وهكذا . بل نظر المسلمين من المصريين ـ على وجه العموم ـ إلى الإسلام يختلف في تفاصيله عن نظر الهنود المسلمين والأتراك المسلمين ، لأن كل أمة تَدَاولُ [١] عليها من العوامل ما يخالف غيرها . وذلك ـ من غير شك ـ خالف بين أنظارهم وعقلياتهم والناس كانوا ينظرون إلى الإسلام نظراً يختلف باختلاف العصور . يعجبني في ذلك ما رواه البخاري والترمذي عن أنس بن مالك (المتوفى سنة ٩٠هـ) قال : ما أعرف شيئاً مما كان على عهد رسول الله ﷺ ، قيل : الصلاة ؟ قال : أليس صنعتم ما صنعتم فيها [٢] . فأنس رضي الله عنه قد شاهد عصر النبي ﷺ وعصر الأمويين ومع قرب العصرين لاحظ اختلاف الأنظار والأعمال ، فكيف إذا شاهد العباسيين وَمَنْ بعدهم . قد كان الإسلام سهلاً يسيراً ، يقول رسول الله ﷺ : إن هذا الدين يُسرٌ ولن يُشادَّ الدينَ أحد إلا غلبه ، ويقول : لا تُشدِّدوا على أنفسكم فَيُشَدَّدَ عليكم فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشُدِّدَ عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديار رهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم [٣] . وكان القاسم بن محمد يلبس الخزَّ وسالم بن عبد الله يلبس الصوف ويقعدان في مسجد المدينة فلا ينكر هذا على هذا ولا ذا على هذا [٤] . وكان هناك نَزعة لبعض الصحابة في الغلو في الدين فقاومها رسول الله ﷺ كالذي كان ببنه

---

(١) تعاقب

(٢) باب الاعتصام بالسنة

(٣) أخرجه أبو داود .

(٤) العقد الفريد (١/٢٥٠)

وبين عبد الله بن عمر ، فقد بلغه أنه لا ينام ولا يُفْطِر ولا يؤدي حقوق أهله إهماكاً في العبادة ، فقال له رسول الله ﷺ : يا عبد الله ! إن لك في رسول الله أسوة حسنة ! فرسول الله يصوم ويفطر ويأكل اللحم ويؤدي إلى أهله حقوقهم . يا عبد الله ! إن لله عليك حقاً ، وإن لأهلك عليك حقاً .

وبعد هذا رأينا تشدداً في دين ، وابتداعاً لتقاليد ، وغلوا في نواح مختلفة ، منهم من يلبس الصوف ويلتزمه . ومنهم من يغلو في الإنكار على لابسيه . قدم حماد بن سلمة البصرة ، فجاءه فَرْقَدٌ السَّنْجِيُّ وعليه ثياب صوف فقال له حماد : دَعْ عنك نصرانيتك [١] ! وقال ابن السَمَّاك لأصحاب الصوف : والله ! لئن كان لباسكم وفقاً لسرائركم فقد أحببتم أن يطّلع الناس عليها ، وإن كان مخالفاً لقد هلكتم . وكان بعض الموالي يتشدد في الوضوء والطهارة ، ويغلو في ذلك غلواً لا يعرفه العرب فكان العرب يكرهون منهم ذلك [٢] إلى كثير من أمثال هذا .

وهناك ما هو أهم من هذا ، ذلك أن الناس في عصر النبي ﷺ وبعده كانوا يقرأون القرآن أو يسمعونه فيُعنَونَ بتفهم روحه فإن عني علماؤهم بشيء من وراء ذلك فما يُوضِّح الآيةُ من سبب للنـــزول أو استشهاد بأبيات من أشعار العرب تفسر لفظاً غريباً ، أو أسلوباً غامضاً [٣] . وأكثر ما روي لنا في الطبري وغيره عن الصحابة في تفسير القرآن هو من هذا القبيل ، وما عرفنا في العصر الأول انحياز [٤] الصحابة إلى مذاهب دينية وآراء في الملل والنحل . فلما كان في آخر العصر الأموي رأينا الكلام في القدر ،

---

(١) العقد الفريد (١/٢٥٠) .

(٢) انظر العقد (٢/٩١) .

(٣) أي خفياً .

(٤) أي ميلان الصحابة .

ورأينا المتكلمين فيه ينظرون إلى القرآن من خلال عقيدهم . فمن قال بالجبر أوَّل كل آيات الاختيار ، ومن قال بالاختيار أوَّل كل آيات الجبر . وسال بعد ذلك السيل في العصر العباسي فصارت كل طائفة وأصحاب كل مذهب ينظرون إليه من خلال مذاهبهم . ولئن كان هذا النظر أفاد من ناحية الجدال بين المسلمين وغيرهم والدعوة إلى الإسلام _ كما بينا في موقف المعتزلة _ فقد أساء بإضعاف الروح الدينية وما كانت توحيه من إحياء القلب . أصبح علماء الكلام والمذاهب الدينية ينظرون إلى القرآن من خلال الفلسفة اليونانية ، وذلك إن كان فيه مران عقلي وتوسيع لبعض مناحي الفكر ؛ ففيه إضعاف لقوة الروح وحماسة القلب ، سواء في ذلك المعتزلة والأشعرية [1] والماتريدية [2] فكلهم استخدموا الأدلة اليونانية في العقائد الدينية ، وهي غير الطريقة التي نحاها القرآن الكريم في الدعوة إلى الدين . لقد كادوا بعملهم هذا يقطعون الصلة بين العقل والقلب . وينمّون الناحية العقلية على حساب القوة العاطفية . إن شئت فاقرأ _ لإثبات قدرة الله — قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة النحل : ٦٧-٦٩) . ثم اقرأ في كتب علم الكلام — الجدل بين الأشعرية والماتريدية في أن القدرة صفة أزلية تتعلق وفق الإرادة ، بمعنى صحة صدور الأثر والتمكن من الترك كما يقول الماتريدية ، أو هي صفة تؤثر في المقدورات عند تعلقها بها كما يقول الأشاعرة ، فكم من الفرق

---

(١) أتباع الامام أبي الحسن الأشعري رحمه الله .

(٢) أتباع الإمام أبي المنصور الماتريدي رحمه الله .

بين المنهجين والروحين . أهم غرض للقرآن الكريم أن يحيي الشعور ببيان علاقة الإنسان القوية بالله والعالم ، وأن يعمل على ذلك بتغذية الحياة الروحية ؛ أما المتكلمون فأرادوا أن يصلوا إلى ذلك من طريق المنطق ، وشتان بين الطريقين ! فحياة المنطق لا تملأ القلب حماسةً ، ولا تبعث في النفس حرارة إيمان ، إنما تفعل ذلك الحياةُ الروحيَّةُ .

لقد كثرت المذاهب والنحل في ذلك العصر كثرةً مُدْهِشةً ، حتى يصفهم المأمون فيقول : وطائفةٍ قد اتخذ كل رجل منهم مجلساً ، اعتقد به رئاسةً ، لعله يدعو فئة إلى ضرب من البدعة ، ثم لعل كل رجل منهم يعادي من خالفه في الأمر الذي عقد به رئاسة بدعةً ويشيط بدمه ، وهو قد خالفه من أمر الدين بما هو أعظم من ذلك إلا أن ذلك أمر لا رئاسة له فيه فسالمه عليه ... إلخ . ونستعرض أسماء الفرق والمذاهب في كتاب «الملل والنحل» للشهرستاني فندهش لكثرتها واختلافاتها . وهذه كلها كانت تنظر إلى القرآن الكريم بعين مذهبها وتفسره بما يلائمه فالمعتزلي يُطَبِّق القرآن على مذهبه في الاختيار والصفات والتحسين والتقبيح العقليين ، ويؤول ما لا يتفق ومذهبه ، وكذلك يفعل الشيعي . وذلك يختلف كل الاختلاف عن نظر المسلمين الأولين إلى القرآن .

كان القرآن يدعو إلى الإيمان من طريقين . طريق النظر إلى العالم نفسه وطريق التاريخ . فهو يرى أن نظر الإنسان إلى العالم يدعم [١] إيمانه ويقوي يقينه ، ففي الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، والإبل كيف خلقت ، والسماء كيف رفعت ،

---

(١) يعين ويقوي .

والجبال كيف نصبت ، والأرض كيف سطحت ، آيات على الله كما أن في الأحاديث التاريخية عن الأنبياء وأممهم ما يدعو إلى الإيمان ، وهذا النظر يناسب الناس على اختلافهم . ففي استطاعة العالم والجاهل أن ينال الإيمان من هذا الطريق ، والدعوةُ إلى الحياة الروحية وحدَها هي الدعوة التي يمكن أن تُوجَّه إلى الناس كافة . فلما أُولِع [١] العلماء بالفلسفة اليونانية في العصر العباسي حولوا اتجاه القرآن نفسه إلى نوع من الثقافة العقلية والبراهين المنطقية ودرسوا القرآن على النحو الذي يدرسون به الحساب والهندسة والهيئة فكان في ذلك إضرار بالدين من ناحيته القلبية . ونتج عن ذلك تعقيد العقيدة الإسلامية السهلة السمحة ، حتى صار يمثِّلها تعاليم المتكلمين من المعتزلة والأشعرية ، وأصبح أخيراً يمثلها «العقائد النَّسَفية» و «متن السَّنُوسية» وشعر بهذا النقص قوم من الصوفية المخلصين فدعوا إلى الإسلام من منهجه الأول ، ولكن سرعان ما تحول بعضهم أيضاً إلى الفلسفة يستمد منها ، كما سنبينه إن شاء الله .

وكان كلما تعمق المسلمون في العلوم والفلسفة نظروا إلى القرآن من خلالها ، فإذا أتت آية الرعد والبرق شرحوها بكل ما وصل إليه علمهم في الظواهر الجَوِّية ، وإذا أتت آية في النجوم والسماء طبَّقوا ما علموا من علم الهيئة ، وإذا أتت إشارة في آية إلى جبر أو اختيار عدَّدوا مذاهب المتكلمين فيها ، وإذا أتت مسألة نحوية أفاضوا في الخلافات النحوية بين البصرين والكوفيين . وعلى الجملة فقد كدّسوا [٢] كل ما عرفوا من علوم حول الآيات القرآنية ،

(١) أي أحبوا واشتغلوا .

(٢) جمعوا وجعلوا بعضها على بعض .

وتضخَّم ذلك على توالي الأزمان ، كما ترى بعد في تفسير الفخر الرازي ، ففيه كل شيء وصل إليه المسلمون إلا شيئاً واحداً ، هو شرح روح القرآن .

ولكن إن كانت هذه نقطة ضعف في الفلسفة والعلوم من ناحية الدين فقد كان لها فضل كبير من الناحية الدينية أيضاً ؛ ذلك أن الناس واجهوا مشكلة كبرى في العصر العباسي ، رأوا مدنيات عظيمة لأمم مختلفة . ورثتها المملكة الإسلامية ، ورأوا عادات مختلفة لأمم متعددة في جميع مناحي الحياة . ورأوا معاملات تجارية ونُظُماً للأحوال الشخصية تأثرت بديانات الأمم المختلفة . وهكذا في كل ناحية من النواحي الاجتماعية ، سواء كانت نواحي اقتصاديةً أم سياسيةً أم قانونيةً . ورأوا _ من ناحية أخرى _ أن الإسلام أتى بأصول يجب المحافظة عليها ، وأتت فيه نصوص كذلك على جزئيات يجب مراعاتها ، ولكن في كل عصر تحدث من الأقضية والأحداث ما لم يكن حدث من قبل ، لم يرد فيه نص . فكان أمام العلماء أن ينظروا بإحدى العينين إلى قواعد الإسلام وتعاليمه ، وبالعين الأخرى إلى المدينة العباسية ، وما جدّ فيها من مظاهر وأحداث شتى وكان لا بد من أن يطبقوا قواعد الإسلام على تلك الأحداث _ ولم يكن هذا بالأمر الهيِّن _ نعم عرضت هذه المشكلة في تاريخ الإسلام من قبل العباسيين ، قد واجهها عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أن فُتِحت الفتوح ومُصِّرت الأمصار ، ودخلت أمم مختلفة العقائد والنظم واللغات تحت حكم الإسلام ، وبذل من الجهد هو ومن حوله من العلماء ما لا يُقدَّر ، وضرب مثلاً صالحاً لمن يأتي بعده . ولذلك نصَّ المشترعون [١] على

(١) أي المقننون .

العمل برأيه في كثير من نظام الفتح والجهاد والضرائب [١] ونحو ذلك وعَدُّوه مثلهم الذي يحتذى . وواجه هذه المشكلة الأمويون ، فحوَّروا في نظم الدواوين والنقود ونحوها ، فخطوا بذلك خطوة ثانية . ولكن المشكلة أمام العباسيين كانت أعقد لأن دهشة الفتح قد زالت ، والأمم التي دخلت في الإسلام استقرَّت ونسلت جيلاً جديداً ، ورث من آبائه وورث من المسلمين ، والعباسيون ـ كما رأينا قبل ـ لم يشاءوا أن يعيشوا عيشة ساذجة كمن قبلهم من الأمويين وتغلَّبت العناصر الأخرى كالفُرْسِ ذَاتِ الحضارة المركبة ، فكان من ذلك كله أن أرادوا أن يضعوا نظماً كاملة شاملة وأن يواجهوا هذه المشاكل ويحلوها حلاً بقوانين ومبادئ ، لا بأمر جزئي ولا برأي فرعي . فأعانتهم العلوم في ذلك العصر على هذا كله ، ولولا العلوم ما استطاعوا . فرأينا أبا يوسف في كتابه «الخراج» يضع النظام المالي لدولة الرشيد . فيقرِّر نظامَ الأرضِ ومسحِها [٢] وما يؤخذ منها ، وكيف يكون ذلك ، ويضع نظام الضرائب غير الأرض مما يُخرِج البحرُ ونحوه ، ويضع نظام الريّ من الآبار والأنهار . ونجد الأئمة الأربعة وغير الأربعة يجتهدون في وضع القوانين من مالية وجنائية وما يسمى بالأحوال الشخصية ، وغير الفقهاء يضعون نظماً إدارية كنظام الشرطة والجند والجيش . وقد تتعارض نظم الفقهاء مع نظم الإداريين فيُنظَر في التوفيق بينهما ، ويوضع نظام البريد والمصانع والتجارة ونحوها . كل هذه حركاتٌ كانت في الدولة العباسية نشيطة قوية وكانت خاضعة في مبادئها

---

(١) جمع ضريبة وهي الجزية .

(٢) أي مساحتها .

للقواعد الأساسية للإسلام . وبذلك نستطيع أن نقول : إنه في هذا العصر قُنِّن الإسلام وأصبح هو النظام لحكومة ممدّنة _ بالمعنى العصري _ نعم كان هناك خروج عن الإسلام في بعض التصرفات ، وكان هناك نقص في تنفيذ الأحكام القضائية ، وكان هناك نقص في إعطاء الأحكام الفقهية سُلطةَ القانون ، ولكن هذا لا ينقض ما ذكرنا من أن الروح العامة _ في التشريع ووضع النظم _ كانت تتقيد بأصول الإسلام وأنه لولا اشتغال المسلمين بالعلم في فروعه المختلفة ما كان يمكن ذلك .

وهذا الإسلام بتعاليمه ونظم حكمه أظلّ كل الأمم الإسلامية على اختلاف أنواعها من آريين وساميين وحاميين يخضعون لسلطانه ، ويجرون في نظامهم وقضائهم ومعاملاتهم على ما قنن من أحكامه . ومن أجل هذا أخذت الفروق بين الأمم تتقلّص [1] ويحل محلها وَحدةٌ إسلاميةٌ . ومن أجل ذلك أيضاً كانت هذه الوحدة متجلية في العصر العباسي أكثر مما كان في العهد الأموي ، ودخل الإسلام في الحياة العامة وفي السياسة وفي الإدارة وتأثر التشريع بعادات الناس ، وتأثرت عادات الناس بالتشريع .

كان الإسلام ديناً في مكة ، وكان ديناً وحكماً في المدينة ، وكان ديناً وحكماً ومدنية في بغداد وسائر المملكة الإسلامية في العصر العباسي . ولعل هذا من الأسباب التي دعت إلى دخول كثيرين في الإسلام في ذلك العصر ، فقد كان الناس يتنفسون إسلاماً أينما حلّوا : في البيت ، في الشارع ، في المحكمة ، في المعاملات التجارية ، في الضرائب ، في التعليم ، في كل مرافق الحياة — [2] .

---

(١) تنضم وتتروي .

(٢) ضحى الإسلام .

الصِّـدِّيـق

للأستـاذ عباس محمود العقاد[١]

أقبل الصدِّيق رضي الله عنه على الإسلام وهو عالم بالذي هو مقبل عليه. لم يقل له أحد ولا قال هو لنفسه إن الأمر أهون مما توقع ، وإن البلاء بعقيدته التي تحول إليها أخف مما وجد ، فلم يجد نصباً وكان يرجو الراحة ، ولم يجد غرماً وكان يرجو المنفعة ، ولم يجد عداءً من قومه وكان يرجو منهم المودة ، ولم يجد خطراً وكان يرجو السلامة ، وإنما دخل في شيء يتوقع ما هو ملاقيه فيه ، ويراه دون حقه من المصابرة والحفاظ والاحتمال لأنه الدين ، لأنه الحياة الفانية والحياة الباقية ، لأنه الحق ودونه الباطل ، والهدى ودونه الضلال.

---

(١) وُلِدَ الأستاذ عباس محمود العقّاد بأسوان سنة ١٨٨٩م ، ودرس في مدرسة أسوان الابتدائية ثم الثانوية وكان نهماً بالقراءة فتثقف بنفسه واشتغل بالوظائف الحكومية ثم اشتغل بالصحافة ثم بالتعليم ، وانتخب عضواً لمجلس النُّواب ثم عُيِّن عضواً لمجلس الشيوخ ، فعضواً لمجمع اللغة العربية.
كان العقاد محباً للعزلة ، كثير القراءة ، كثير الكتابة ، يكتب في كل موضوع وفي كل غرض ، شديد الكراهية للإشتراكية بأنواعها ، حسن الرد على شبهات المستشرقين ، مُجيد الكتابة في الشخصيات وتحليلها ، له ما يزيد على ستين مؤلفاً في الأدب والنقد والتاريخ والفلسفة ، وقد استن طريقة جديدة في كتابة التاريخ والسير بعبقرياته المعروفة. يمتاز العقاد بالعمق وسعة الدراسة والثقافة والتحليل العلمي ، يكاد يكون صاحب مدرسة في الأدب الحديث ، مات سنة ١٩٦٤م.

فما أقبل إنسان قط أصدق من هذا الإقبال ، وما تأهب[١] إنسان قط لبلاء في سبيل ضميره وربه أعظم من هذه الأهبة[٢] ، وما نفس الصدق عند إنسان قط أغلى من هذه النفاسة. فهي سلامة النفس وسلامة الآباء والأبناء وسلامة المال والعتاد وسلامة الدنيا بأسرها يعلقها بكلمة صدق من رجل صادق وإن أناساً ليصدقون غاية التصديق ثم لا يخاطرون في سبيل الصدق برزق يوم ولا براحة ساعة. إنه الصدِّيق!

وما وصف بكلمة واحدة هي أجمع لخلائقه من كلمة الصدِّيق!

ولقد رأينا أناساً من الناقدين يستنكرون على عربي في الجاهلية أن يُقوِّم الهداية الدينية بهذه القيمة التي لا تعلوها قيمة.

ولكنهم مخطئون! لأن العربي الجاهلي عرف «الحق» وعرف بيع الحياة في سبيل «الحق» كما يراه حق الجوار أو حق العرض أو حق الشرف والذمار.

وأبو بكر خاصة كان ممن يرعون الحقوق ويكفلونها لأهلها ، وكان ممن يكرهون البغي وينقمونه على أهله.

فإذا عرف «الحق» الأكبر فغير عجيب أن يرعاه هذه الرعاية وأن يكفله هذه الكفالة ، وهو مهيأ لعرفانه بكرم الخليقة وطيب النحيزة[٣] واستقامة الفطرة وصفاء القريحة.

وقد عاش أبو بكر في زمن كان عقلاؤه في كل أرض يتطلعون إلى هداية من السماء ، ويخيل إلينا أن انتظار الهداية من السماء لم يطل في زمن من الأزمان ، ولا سيما الزمن الذي يعم فيه الفساد وتعيا به حيلة الإنسان. وحسبنا أننا بعد الإسلام رأينا أناساً يترقبون «المهدي» الذي ينشر

---

(١) تهيأ واستعد.

(٢) أي العُدَّة.

(٣) الطبيعة.

العدل كلما عم الجور ، ويأمر بالعرف كلما فشا المنكر ، ويهدي إلى سواء السبيل كلما استحكم الضلال.

وقبل البعثة المحمدية كان أناس ينتظرون الهدى من نسل داود أو ينتظرونه من نسل إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهم الصلاة والسلام!

وسمع أبو بكر ما سمع من هذا في رحلته إلى اليمن ورحلته إلى الشام وفي حديثه مع ورقة بن نوفل ، وحديثه مع المنكرين لظلام الجاهلية والمستشرفين[١] إلى كل نور جديد.

وهذا محمد بن عبد الله ﷺ يدعوه دعوة إبراهيم ـ دعوة الأب الأكبر الذي يشمل العرب جميعاً ، ومن فوقها دعوة الله التي تعم جميع الناس.

فمن أولى منه بالدعوة! ومن أولى منه بالتصديق!

إنه استشار خلقه القويم فهداه ، وإن مشورة العقل وحدها لتهديه هذه الهداية حيثما وازن وقابل ، فأحسن الموازنة والمقابلة بين جميع ما ينتظم فيها من شؤون ذلك الزمان.

كان أبو بكر في اهتدائه إلى الإسلام هو أبو بكر في نشأته وسليقته وجملة أحواله وأحوال قومه وعهده.

وكان أبو بكر في إسلامه هو أبو بكر فيما وصف به وفيما جد عليه من إيمان المصدق بدينه وحماسة المعجب ببطله.

كان إسلامه إسلام الرجل الكريم السمح الودود ، يستمسك بالصدق والتصديق ويخلص في الإعجاب بالبطل الذي هداه إخلاصاً لاشية[٢] فيه ، فهو يلين في كل حالة ، ويشتد في حالة هو فيها أشد الأشداء: مرجعها إلى كل ما اتصل عنده بقوة التصديق وقوة الإعجاب.

---

(١) المتطلعين.

(٢) كل لون يخالف معظم لون الشيء.

قال بعد مبايعته بالخلافة: «إنما أنا متبع ولست بمبتدع» فجمع إسلامه أجمع صفة وأحسنها في هذه الكلمات.

وربما عرض له من الأمر ما ليس يتضح فيه طريق الاتباع، فيخرج إلى الناس يسألهم ثم يقول: «الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ علينا سنة نبينا».

فلا يبتدع إلا بعد استقصائه[١] كل مرجع من مراجع الاتباع.

وفي هذا هو شديد غاية الشدة، بعيد من اللين والهوادة[٢] غاية البعد، وهو الرجل الذي اتسم[٣] في حياته كلها باللين والهوادة.

فتصديق المؤمن وإعجاب المعجب ببطله العزيز عليه، هما تفسير كل شدة يشتدها الصديق الحليم الودود.

هو شديد في تسيير جيش أسامة رضي الله عنه، لأن النبي ﷺ ولّاه وأمر بتسييره، وما يكون له أن ينزع رجلاً استعمله رسول الله ﷺ «ولو تخطفته الذئاب ولم يبق في القرى أحد غيره».

هو شديد في حرب الردة، لأنه لا يترك عقالاً[٤] كان رسول الله ﷺ يأخذه من المرتدين.

وإذا رأيناه يتردد بين الهوادة والشدة في محاسبة بعض الناس فالشدة التي مرجعها التزام جادة الرسول والاقتداء بقدوته في كل شيء هي أقرب التفسيرين إلى فهم علمه، وهي أغلب في طبعه من اللين والهوادة، على اشتهاره بهما في كل ما عدا ذاك.

ويتبين لنا مناط الشدة واللين عنده في جناية واحدة استصغر فيها

---

(١) المبالغة في الطلب.
(٢) اللين والرفق.
(٣) أي جعل لنفسه سمة يعرف بها.
(٤) حبل يشد به البعير في وسط ذراعه.

العقوبة على امرأة واستكبر العقوبة نفسها على امرأة أخرى. وذلك إذ كتب إليه المهاجر بن أبي أمية المخزومي يقول له إن مغنيتين تغنت إحداهما بثلب رسول الله ﷺ وتغنت الأخرى بثلب المسلمين، فقطع يديهما ونزع ثناياهما لتكفّا عن الغناء، فخطأه أبو بكر لأن الأولى كانت أحق بالقتل، وأن الثانية كانت أحق بالصفح وأوصاه أن يقبل الدية وأن يحذر المثلة «فإنها مأثم ومنفرة إلا في قصاص».

ففي تعظيم النبي ﷺ كل شدة قليلة، وفي أمر غيره كل صفح جائز بل مستحب محمود، وليست هي المحبة التي يعوزها التفكير قد فرقت هذه التفرقة بين العقابين، لأن هجو النبي ﷺ قدح في لباب الدين وأس النظام، وهجو المسلمين وزر قد يأتيه المسلم في خلاف بينه وبين قومه، ولكنها على هذا حادثة قد عرضت لنا طبع أبي بكر في حالتيه: لين وهوادة، وإعظام لا لين فيه ولا هوادة، وإنما هي الشدة كأشد ما تكون.

وربما تهيب[١] الأمر فيه نفع لا شك فيه إذا لم يسبقه النبي ﷺ إلى صنعه أو صنع مثله، لفرط اتقائه أن يصنع ما ترك أو يترك ما صنع، كما تهيب جمع القرآن في المصحف حين أشار به عمر رضي الله عنه، فقال: «كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟» ثم استصوب جمعه لما فيه خير.

فسماحة أبي بكر رضي الله عنه كانت طبيعة فيه لأنه طبع على الرفق والأناة والأخذ بالحيطة واستبقاء المودة.

وشدة أبي بكر كانت طبيعة فيه، لأنه طبع على تصديق من هو أهل لتصديقه والإعجاب بمن هو أهل لإعجابه، ولن ترى شدة في إنسان كشدّة الرجل السمح في تنزيه صفيه وحبيبه وموضع إعجابه، ولا حرصاً

---

(١) خاف.

في إنسـان كحرصـه علـى القـدوة بذلك الصفـي الحبـيب المعجب بـه ، واجتناب التخلف عنه والحيد عن طريقه.

وفيما عدا هذه الشدة لم يكن أبو بكر إلاّ حلماً غالباً ورحمة غالبة ، ولم تنفرج أمامه طريقان: إحداهما إلى العفو ، والأخرى إلى البطش إلاّ أخذ بالأولى وأعرض عن الثانية.

شاوره النبي ﷺ في أسرى بدر فقال: «يا نبي الله! هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان! فإني أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذنا منهم قوة ، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً»[١].

وشاوره حين اجتمعت قريش لصده وصد المسلمين عن البيت فنادى بالناس: «أشيروا أيها الناس عليّ! أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ، فإن ياتونا كان الله قد قطع عيناً من المشركين ، وإلا تركناهم محروبين».

فقال أبو بكر: «يا رسول الله! خرجت عامداً لهذا البيت ، لا تريد قتال أحد ولا حرباً ، فتوجه له فمن صدنا قاتلناه». . . يقاتل من صده عن البيت ولا يقاتل من لم يصده.

وشيع[٢] جيش أسامة فلم ينس أن يوصيه بالضعفاء وهو ذاهب إلى القتال:

«لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتيكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها

---

(١) أي أعواناً.

(٢) خرج ليودع.

شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم[١] بالسيف خفقاً. اندفعوا[٢] باسم الله ! » .

وليس أكثر من الشواهد التي تشهدها على قوة الدين في نفوس من آمن به إلا أننا لا نعلم بينها شاهداً أصدق في الدلالة على تلك القوة من أن يدين المرء نفسه بالدين أمام أعدائه ، كما يدينها به أمام إخوانه في اعتقاده. ومن شواهد ذلك في إسلام الصديق أنه كره المثلة بأعدى الأعداء في ميدان القتال ، فلما بعث إليه عمرو بن العاص برأس بنان بطريق الشام أنكر فعله أشد إنكار ، ولم يخف من إنكاره قول عقبة بن عامر له : إنّهم يصنعون بنا بل قال : أيستنون بفارس والروم؟ لا يحمل إليّ رأس . إنما يكفي الكتاب والخبر .

فهو مسلم مع من يحب ومع من يكره ولو في قتال . وهذا بلاغ الدين القويم في نفس إنسان[٣]

* * *

(١) اضربوهم .

(٢) امضوا .

(٣) عبقرية الصديق .

ذِكْرَى المَوْلِد

للأستاذ أحمد حسن الزيات [١]

ذِكرى مولد الرسول ﷺ هي ذكرى قِيامة الروح وولادة الحرية ونشور الخلق ، فكأن مولده كان البعث الأول طهَّرَّ النفس وعمَّر الدنيا وقرَّر الحقَّ للإنسان ، كما أن البعث سيُخلِّص الروحَ ويبتدئ الآخرة ويعلن الملك لله .

(١) ولد في ٢ من أبريل عام ١٨٨٥م في إحدى ضواحي القاهرة ، وانتقل إلى القاهرة والتحق بالجامع الأزهر وتلقى العلوم الأزهرية على أساتذته من أساطين العلم منهم السيد على المرصفي والشيخ محمد عبده ، قرأ على الأول «ديوان الحماسة» «والكامل» للمبرد و«الأمالي» لأبي علي القالي «والمفصل» للزمخشري ، وعلى الثاني كتابي «دلائل الإعجاز» و «أسرار البلاغة» للجرجاني . ثم التحق بالجامعة المصرية القديمة وتلقى تاريخ الأدب العربي والفرنسي على المستشرقين الإيطالين «كويدي» و «فريننو» ودرس الحقوق الفرنسية في مدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة وأتم تعليمه العالي للحقوق في جامعة باريس ، وعاد وتقلب في وظائف تدريس الأدب العربي في القاهرة وبغداد ، حتى استقر بالقاهرة وأصدر سنة ١٩٣٣م مجلة «الرسالة» التي بقيت تخدم الأدب العربي عشرين سنة كانت فيها ملتقى الكُتّاب النابغين ومدرسة الأدباء الناشئين ، وتولى رئاسة تحرير مجلة الأزهر ، وهو عضو في المجمع اللغوي العربي بالقاهرة والمجمع العلمي بدمشق .
وقد أساء الأستاذ الزيات إلى أدبه وشهرته إساءة كبيرة حين قارن بين الوحدة المحمدية والصلاحية والوحدة الناصرية ، وصرح بفضل الأخيرة على الأوليين ، وتنبأ ببقائها وخلودها ، ويا ليته مات قبل أن يصدر عن قلمه هذا المقال المخذول ، ونعوذ بالله من الحور بعد الكور . مات سنة ١٩٦٩م .

كان العالم يومئذ يضطرب في رقِّ المادَّة وعُبودية الشهوة وسلطان القوة ، فلم يكن للمَثَل الأعلى وَجود في ذهنه ، ولا للغرض النبيل أثر في سعيه ، ولا للشعور الإنساني مجرى في حِسِّه ، ولا للسُّمُوِّ الإلهي معنىً في نفسه ، إنما كان حيوانيا شهوته الغَلَب ، مادِّياً غايته اللذة ، أنانياً شريعته الهوى ؛ ثم أسرف في البهيمية حتى جعل كل أنثى مباحة لكل ذكر ، في المادية حتى اتخذ إلهه من خشب أو حجر وفي الأنانية حتى قتل أولاده خشية الإملاق [١] والضرر . فلما أتى النبي العربي فتح في غار حراءٍ باباً إلى السماء ، تنـــزَّلت منه الملائكة والروح على هذا الهيكل المُنحلّ والجسد المعتلّ ، فنفخت فيه سِرَّ الحياة ومعنى الخلود وحقيقة الله . وحينئذ شعر سليل الأرض أن له أسباباً إلى السماوات رثَّت [٢] على طول غفلته ، وأن له حياة خيراً من هذه الحياة استسرّ علمها في جهالته ، فتشوّف [٣] إلى الأفق البعيد ، واستشرف إلى السمت العالي ، وأرسل نظره وراء النظر النبوي من فوق الجبل في صمت حراء المفكر ، وفي سكون الوادي الملهم ، وفي غيابة الفضاء الرهيب ، يفكر في الملكوت الدائم ، ويُسبِّح للجلال القائم ويفنى في الوجود المطلق .

كانت العقيدة قبل محمد ﷺ أن تموت الروح أو يموت الجسم ، وأن يحكم الله أو يحكم الإنسان ، وأن يظهر الدين أو تظهر الدنيا . أما تقرير الصلة بين المعنى والذات ، وبين المصباح والمشكاة ، وبين الحياة الأولى والحياة الأخرى ، وبين الإرادة السفلى والإرادة العليا ، فذلك هو القصد الإلهي من رسالة محمد ، والتنفيذ المحمدي لإرادة الله — عليه صلوات الله وسلامه .

وكان العالم قبل يوم محمد يرسف [٤] في عبودية عقلية تقتل التفكير ،

---

(١) الإفلاس .

(٢) بليت .

(٣) تطلّع .

(٤) يمشي مشية المقيد .

وعبودية جسمية تعقل التصرف ، فلم يكن للأسرة نظام ، ولا للقبيلة قانون ، ولا للأمة دستور ، ولا للعقيدة شريعة ، إنما هو طغيان عاسف[١] يتحكم في الفرد ويسيطر على الجماعة؛ فالأب يملك على بنيه الموت والحياة بحكم الطبيعة ، والشيخ يفرض على عشيرته الأمر والنهي بمقتضى العرف ، والملك يخضع نفوس الشعب باسم الدين ، والكاهن ينسخ عقول الناس بقوة الجهل ، والناس أجمعون عدا هؤلاء الأربعة اتباع وأوزاع[٢] وهمل.

فلما بُعث الرسول الكريم رحمة للعالمين بعث الحرية من قبرها ، وأطلق العقول من أسرها ، وجعل التنافس في الخير ، والتعاون على البر ، والتفاضل بالتقوى؛ ثم وصل بين القلوب بالمؤاخاة ، وعدل بين الحقوق بالمساواة ، ودخل بين النفوس بالمحبة ، حتى شعر الضعيف أن جند الله قوته ، والفقير أن بيت المال ثروته ، والوحيد أن المؤمنين جميعاً إخوته ، ثم محا الفروق بين أجناس الإنسان ، وأزال الحدود بين مختلف الأوطان ، فأصبحت الأرض كلها وطناً مشاعاً[٣] ، والعالم كله أسرة متحدة ، لا يهيمن على علائقها إلا الحب ، ولا يقوم على مرافقها إلا الإنصاف ، وليس فيها بين المرء وخليفته حجاب ، ولا بين العبد وربه واسطة.

يا رعى الله ذكراك! المقدسةَ يا غار (ثور)! لقد كنتَ مبعث الحرية كما كان غار (حراء) مبعثَ الروح فأنت في جبل الخلاص هو في جبل التجلي.

وكان العالم قبل مولد محمد ﷺ يعاني تفكك الخلق وتحلل الرجولة

---

(١) شديد.

(٢) الجماعات ولا واحد لها.

(٣) مشتركاً.

وتغلب الأثرة وتحكم السفاهة ، فسطوة اليد تسرف على العدل ، وعصبية الدم تبغي على الحق ، وسلطان المال يجني على الإنسانية ، وسورة الترف[١] تعتدي على المروءة ، فالتجارة بخس وتطفيف[٢] ، والعهود ، نقض وتسويف ، والناس يعيشون عيش الوحش: تنافر وتدابر واحتيال واغتيال[٣] وشهوة!! فلما ظهر البطل العظيم والإنسان الكامل كانت شمائله وأفعاله رسالة أخرى في الخلق كان تطبيقاً لقوانين الدين بالمثل ، وتعليماً لآداب النفس بالعمل ، وتنظيماً لغرائز الحياة بالقدوة ، ثم فعلت شخصيته ودعوته في نفوس رويت بالدماء ونغلت[٤] بالعداء وعاشت على الفرقة فألّفهم على المودة وجمعهم على الوحدة ، ثم جعل لهم من كتاب الله نوراً ومن سنته دستوراً ، ورمى بهم فساد الدنيا فأصلحوا الأرض ومدنوا العالم وهذبوا الأرض.

ذلك ما تلقيه ذكرى مولد الرسول في رُوع[٥] المؤمن العَقول الذاكر! فليت شعري ماذا يجد اليوم في نفسه وفي قومه من روح محمد وحرية محمد وخلق محمد! ... ألسنا نعيش اليوم صوراً كقطع الشطرنج ، وأتباعاً كعبيد الأرض ، وهمجاً[٦] كهمج الجاهلية؟ وهل كان ذلك يكون لو أننا اتخذنا من أحكام الله منهاجاً ، ومن كلام رسوله علاجاً ، ومن حياة السابقين الأولين قدوة؟

إن ذكرى مولد الرسول ذكرى انطلاق الإنسانية من أسر الأوهام وطغيان الحكام وسلطان الجهالة ، فما أجدَرَ القلوب الواعية الحرة على

---

(١) التنعم.
(٢) أي نقص لكيل قليلاً.
(٣) إهلاك من حيث لا يدري.
(٤)- أي فسدت.
(٥) القلب.
(٦) الرعاع من الناس الحمقى.

اختلاف منازعها ومشارعها أن تخشع إجلالاً لذكرى رسول التوحيد والوحدة ، ونبي الحرية والديمقراطية وداعية السلام والوئام[١] والمحبة[٢] .

❋ ❋ ❋

(١) الموافقة.
(٢) وحي الرسالة.

العَقيدَة وَالحَياة

للأستاذ سيد قطب[١]

عمر الفرد الفاني محدود ، وأيامه على الأرض معدودة ، وهو بالقياس إلى هذا الكون الهائل الذي يعيش فيه ذرة تائهة لا مستقر لها ولا قيمة ، وعمره بالقياس إلى الزمن الهائل من الأزل إلى الأبد ومضة[٢] برق أو غمضة عين ولكن هذا الفرد الفاني ، هذه الذرة التائهة ، هذا

---

(١) هو سيد قطب بن الحاج قطب إبراهيم ، هاجر جده السادس الفقير عبيد الله من الهند إلى مصر وتديرها. وُلد في سنة ١٩٠٦م في مديرية أسيوط وحفظ القرآن وانتقل إلى القاهرة والتحق بدار العلوم في سنة ١٩٢٩م ونال منها شهادة في التعليم واشتغل في وزارة المعارف التي أرسلته سنة ١٩٤٩م إلى أمريكا لدراسة نظم التعليم هناك ورجع منها سنة ١٩٥١م وقد رأى إخفاق الحضار الغربية وميلها إلى الإنهيار واعتزل الوظيفة وانقطع إلى التأليف والكتابة. الأستاذ قطب من أركان الأدب الإسلامي الحديث والدعوة الإسلامية العلمية ، كان من أساتذة النقد الأدبي ومن المتجددين من مدرسة الأستاذ العقاد حتى أثرت فيه دراسة القرآن أثناء تأليفه «التصوير الفني في القرآن» و«مشاهد القيامة في القرآن» وأكرمه الله بالإيمان الجديد القوي بدينه وصلاحه للخلود والقيادة والسيادة فدعا إلى ذلك على بصيرة وكتب وألف واتصل بدعوة الإخوان المسلمين حتى اعتقل في سنة ١٩٥٤م على أثر حل الجماعة . له «العدالة الاجتماعية في الإسلام» ، و «معركة الإسلام والرأسمالية» ، و «الإسلام والسلام العالمي» ، و «في ظلال القرآن» . واعتقل في عهد الرئيس جمال عبد الناصر وحوكم وعُذّبَ . مات شهيداً سنة ١٩٦٦م .

(٢) لمعة.

اللَّقَى[١] الضائع يملك في لحظة أن يتصل بقوة الأزل والأبد وأن يمتد طولاً وعرضاً في ذلك الكون الهائل أن يرتبط به في أعماقه وأمشاجه[٢] بوشائج[٣] من القربى لا تنفصم[٤] أن يشعر أنه من تلك القوى الهائلة وإليها ، أنه يملك أن يصنع أشياء كثيرة وأن ينشىء أحداثاً ضخمة وأن يؤثر في كل شيء ويتأثر ، يملك أن يحس الوجود في الماضي والاستقرار في الحاضر والامتداد في الآتي ، يملك أن يستمد قوته من تلك القوة الكبرى التي لا تنضب ولا تنحسر ولا تضعف وأنه لقادر إذاً على مواجهة الحياة والأحداث والأشياء بمثل قوتها وأقوى ، فما هو باللقى الضائع ولا بالفرد العاجز وهو يستند إلى قوة الأزل والأبد وإلى ما بينه وبينها من وشائج ، تلك وظيفة العقيدة الدينية وذلك أثرها في النفس والحياة وذلك سرقوة العقيدة في النفس وسر قوة النفس بالعقيدة ، سرتلك الخوارق التي صنعتها العقيدة في الأرض وما تزال في كل يوم تصنعها، الخوارق التي تغير وجه الحياة من يوم إلى يوم وتدفع بالفرد وتدفع بالجماعة إلى التضحية بالعمر الفاني المحدود في سبيل الحياة الكبرى التي لا تفنى، وتقف بالفرد القليل الضئيل[٥] أمام قوى السلطان وقوى المال وقوى الحديد والنار. فإذا هي كلها تنهزم أمام العقيدة الدافعة في روح فرد مؤمن وما هو الفرد الفاني المحدود الذي هزم تلك القوى جميعاً ، ولكنها القوة الكبرى الهائلة التي استمدت منها تلك الروح ، والينبوع[٦] المتفجر الذي لا ينضب ولا ينحصر ولا يضعف ، وما تملك عقيدة أخرى غير العقيدة الدينية أن تصل الكائن الفاني بقوة الأزل والأبد وأن تمنح الفرد الضعيف ذلك العون

---

(١) الشيء الملقى المطروح ج ألقاء.

(٢) المشيج المختلط المكوَّن من عناصر مختلفة باختلاف مواد الغذاء.

(٣) الوشيج اشتباك القرابة ج وشائج.

(٤) لا تنكسر.

(٥) الضئيل الحقير.

(٦) عين الماء.

والسنـد ، وأن تصغـر فـي عينيـه قـوى الجـاه والمـال وقـوى المـركـز والسلطان ، وقوى الحديد والنار ، وأن تصبره على الحرمان والأذى ، وتقدره على الصبر والكفاح[1] وتدفعه إلى الموت الذي يخلق الحياة والفناء الذي يمنح الخلود ، والتضحية التي تورث النصر ـ ومن ثم قيمتها الكبرى في حياة الأفراد وحياة الجماعات سواء ومن ثم ذلك الإصرار الذي نصره على مواجهة مشكلاتنا الاجتماعية ومشكلاتنا القومية ومشكلاتنا العالمية بحلول تنبع من عقيدتنا الدينية ، إن هذه العقيدة قوة هائلة في أيدينا وقوة عميقة في كياننا قوة لا يتخلى عنها صاحبها في زحمة الصراع إلا أن يكون به حمق أو سفه.

ونحن نواجه صراعاً ضخماً في الداخل وفي الخارج ، نواجه قوى هائلة متكتلة أكبر من طاقتنا المجردة فإذا كانت عقيدتنا تسعفنا في هذا الصراع الضخم بقوى حقيقية واقعة وبحلول عملية واقعة كذلك؛ فأي ضمير يملك أن يفرط في تلك القوى وأن يتخلى عن هذه الحلول لمجرد أنها نابعة من تلك العقيدة؟

إن بعض النظم الأخرى قد تقدم لنا بعض الحلول لبعض المشكلات في بعض الأحيان ولكن قيمة العقيدة التي ندعو إليها ليست مجرد تقديم الحلول الوقتية للمشكلات الوقتية إن قيمتها أن تقدم هذه الحلول وتقدم معها القوة الضامنة لتحقيقها،وحمايتها قوة الدافع الفطري العميق للعقيدة الدينية ، ذلك الدافع الذي لا تملأ فراغه في النفس الإنسانية فكرة فلسفية ولا مذهب اجتماعي ولا نظرية اقتصادية. ذلك أنه أعمق في النفس البشرية من مستوى الفكر والمذاهب والنظريات ، إنه جوعة فطرية لا يسدها إلا الإيمان جوعة كجوعة الجسد إلى الطعام والشراب وسائر الضرورات ، وكم يخطىء الذين يخدعهم خمود هذا الدافع فترة أو

(١) مواجهة العدو.

تواريه ، فيحسبونه قد مات ، ويحسبون أنهم يستطيعون ملء فراغه في نفوس الأفراد والجماعات ، بمذاهب فلسفية أو نظريات اقتصادية أو أفكار اجتماعية وسرعان ما يتبين لهم خطؤهم حينما تنفض العقيدة الخامدة من حيث لا يحسبون ، فتأتي بالخوارق في حياة الفرد وفي حياة الجماعة هذه العقيدة التي كانت منذ لحظة خامدة هامدة لا توحي بأمل ولا ينبعث منها رجاء وإن هي إلا فترة كموت يحسبها الجاهلون موتاً ، ويدرك العارفون أنها طور من أطوار النفس البشرية المليئة بالمسارب والمداخل وبالمنعرجات والدروب.

تلك الخوارق التي تأتي بها العقيدة الدينية في حياة الأفراد وفي حياة الجماعات لا تقوم على خرافة غامضة ولا تعتمد على التهاويل والرؤى ، إنها تقوم على أسباب مدركة وعلى قواعد ثابتة ، إن العقيدة الدينية فكرة كلية تربط الإنسان بقوى الكون الظاهرة والخافية ، وتثبت روحه بالثقة والطمأنينة ، وتمنحه القدرة على مواجهة القوى الزائلة والأوضاع الباطلة بقوة اليقين في النصر وقوة الثقة في الله ، وهي تفسر للفرد علاقاته بما حوله من الناس والأحداث والأشياء وتوضح له غايته واتجاهه وطريقه وتجمع طاقاته وقواه كلها وتدفعها في اتجاه. ومن هنا كذلك قوتها قوة تجميع القوى والطاقات حول محور واحد وتوجيهها في اتجاه واحد تمضي إليه مستنيرة الهدف في قوة وفي ثقة وفي يقين ، والشخصية الإنسانية السوية وحدة متماسكة ، فهي في حاجة إلى عقيدة موحدة تصدر عنها في كل اتجاه وتستلهمها في الشعور والسلوك وتستهديها في مواجهة الكون والحياة وترجع إليها في كل صغيرة وكبيرة. وفضل هذه العقيدة في حياة كل إنسان أن تكون نقطة ارتكاز تتجمع إليها خيوط حياته ونشاطه ، فلا تتمزق شخصيته وتتبعثر ولا يدركها القلق والحيرة والاضطراب وكلما قويت هذه النقطة واشتدت صلاتها بالخيوط المنبثة هنا وهنالك في حياة الفرد ونشاطه كانت شخصيته أقوى لأنها أكثر تجمعاً وكانت خطواته أهدى

لأنها أوحد طريقاً ، والعقيدة التي تتسع لكل ألوان النشاط الإنساني هي عقيدة أفضل وأكمل من العقيدة التي تنظم بعض ألوان النشاط وتقصر عن بعضها ، وكلما ثاب الفرد في نشاطه كله إلى عقيدة واحدة كان ذلك أفضل له وأيسر من أن يرجع في ألوان نشاطه إلى عقائد متفرقة . إن وحدة العقيدة حينئذٍ تحقق وحدة الشخصية دون أن تجور على ألوان نشاطه المتعددة ودون أن تضيق مجال النشاط أو تحده ودون أن تمزقها طرائق قدداً[١] وتوقع بينها الاضطراب أبداً،والعقيدة الروحية التي لا رأي لها في السلوك الاجتماعي والعلاقات الاقتصادية والنظم العالمية كالنظرة الاجتماعية التي لا رأي لها في الاعتقاد الروحي والتنظيم الدولي كالفكرة الفنية التي لا علاقة لها بالسلوك أو الاعتقاد أو النظام،كلها محاولات ناقصة لا تملك أن تنظم للإنسانية حياتها كاملة ولا أن تحقق للشخصية الإنسانية التماسك والاتساق ، إن الفرد كالجماعة في حاجة ملحة إلى عقيدة تتسع لكل ألوان النشاط الحية وتهيمن على اتجاهاتها جميعاً لتدفع بها كلها في طريق الإنشاء والبناء والنماء،والفترات التي يهتدي فيها الفرد أو تهتدي فيها الجماعة إلى مثل هذه العقيدة وتستجيب لها استجابة كاملة وتحققها في واقع الحياة . . . هي الفترات التي تحقق فيها البشرية ما يبدو كأنه معجزات وما يصعب تفسيره إلا على ضوء الوحدة التي تجمع الطاقة وتصونها عن التبدد والتمزق وتدفع بها كلها في اتجاه واحد كالتيار الجارف وكالسيل الجبار .

والعقيدة الإسلامية هي المثال الواحد الذي عرفته الإنسانية في تاريخها الطويل في هذا المجال إنها العقيدة التي تتسع فتشمل كل نشاط الإنسان في كل حقول الحياة فلا تقصر مهمتها على حقل دون حقل ولا على اتجاه دون اتجاه إنها لا تَدع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ، فما لقيصر وقيصر

(١) جمع قِدة بكسر القاف وهي الفرقة .

ذاته في العقيدة الإسلامية كله لله وما لقيصر حق ليس للفرد من رعاياه وأنها لا تتولى روح الفرد وتهمل عقله وجسده أو تتولى شعائره وتهمل شرائعه ، أو تتولى ضميره وتهمل سلوكه وأنها لا تتولاه فرداً وتهمله جماعة ولا تتولاه في حياته الشخصية وتهمل نظام حكمه أو علاقات دولته.

إنها الفكرة الكاملة الشاملة التي تمتد خيوطها في الحياة الإنسانية امتداد الشرايين في الكائن الحي وامتداد الأعصاب[١]

* * *

(١) الإسلام والسلام العالمي.

عَـالِـم

للأستاذ علي الطنطاوي[١]

حدثني بعض مشايخي ممن رأى بعينه وسمع بأذنه. قال:

وقعت الصيحة في «حيّ الميدان» أجل أحياء دمشق وأكبرها، صبيحة يوم من أيام سنة ١٨٣١ بأن إبراهيم باشا قادم لزيارة عالم الشام الشيخ سعيد[٢] الحلبي في مسجده وإبراهيم باشا من قد علمت في بطشه وجبروته. ومَنْ يَـدُهُ إلى السيف أسرع من لسانه إلى القول وعينه إلى النظر... ومن كان جبار سورية وفاتحها وسيدها، فطار الفزع بألباب الميدانيين، وهم فرسان دمشق وحماتها، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ماذا يصنعون؟ إنهم يعلمون أن الشيخ لا يقيم وزناً لأحد من أبناء الدينا، فلا يبجل[٣] سلطاناً لسلطانه، ولا يوقر غنياً لغناه، ولا يقيس الناس بما على جسومهم من ثياب، ولا بما في صناديقهم من مال، ولا بما يبتزون[٤] من أسوال الدولة. ولكن يقيسهم بما في نفوسهم من فضائل، وما في قلوبهم من إيمان، وما في رؤوسهم من علم، وإذا نظر

---

(١) تقدمت ترجمته في الجزء الأول.

(٢) كان عالم الشام قبل طبقة الشيخ محمود الحمزاوي والشيخ محمد طنطاوي والشيخ بكر العطار وأصحابهم.

(٣) لا يوقر.

(٤) يستلبون.

الناس من خارج فرأوا الطبل سميناً عظيماً ، نظر من داخل فرآه خالياً حقيراً . . .

وكانوا يخشون أن يسوء ذلك من شأنه الباشا ، ويودون لو رجوا الباشا ، ولكن كيف يصلون إليه وهو في قصره ، حوله الحجاب والأعوان ، والجند بالسلاح ، ومن حوله الموت ألواناً وأشكالاً ، يحمي حماه ، ويحرس أبوابه . . . ويتمنون لو رجوا الشيخ ، ولكن الشيخ أعز من مئة ملك جبار ، تحميه هيبته ، ويحرسه تقواه ، وتحف به الملائكة واضعة له أجنحتها .

ولم يكونوا يخافون أن ينال الشيخ سوء فهذا شيء تحيله عقولهم لما استقر فيها من إجلال الشيخ وإكباره ولا تراه أبصارهم ، لأنهم يقضون عن آخرهم قبل أن تراه أبصارهم ولكنهم كانوا يخشون الشيخ على الباشا ، ويخشون الباشا على نفوسهم .

ومضوا يقيمون معالم الزينة ، ويبنون أقواس النصر ، ويرفعون الرايات على طريق البطل الفاتح ، ويقطفون[١] أزهى أزهار الغوطة لينثروها عليه . . . فما كان الأصيل[٢] حتى تم كل شيء ، وأقبل الباشا في الموكب[٣] الفخم ، والجند والسلاح والدبدبة . . . . حتى انتهى إلى باب المسجد وكان باباً صغيراً ، فاعترض الباشا كأنه يقول له : ارجع أو ارجع دنياك . إنك تدخل بيت الله بشراً خاضعاً ، أما أن تكون تزوير إله . . . بألف عبد ، وألف ثوب ، فلا! إنه لا يجتمع ميراث النبوة التي جاءت بالتوحيد والمساواة ، ببقايا الجاهلية التي قامت على الشرك والتمييز بين الناس ، إلا محى أحدهما . . . . فانظر هل محا باطل حقاً؟

---

(١) يجنون .
(٢) الوقت بين العصر والمغرب .
(٣) الجماعة مشاة وركباناً .

قال الراوي: وتردد الباشا هنيهة[١] يفكر، ثم أبعد أعوانه وترجل ودخل المسجد منفرداً، وكان الشيخ جالساً على حصير قد وضعت فوقه حشية وكان مادّاً رجله فسمعته يقول:

... والمرء إذا خاف الله، وصدق في مخافته، خافه كل شيء، لأنه لا يرى كبيراً إلا صغّره عنده أن الله أكبر... الله أكبر. إن لهذه الكلمة سراً إلهياً ولكن المسلمين استعجموا فلا يرددون منها إلا حروفها فارغة من المعنى، وما فرض الله على المسلم أن يقولها كل يوم(٨٥) مرة[٢] أقل ما يقولها ويسمعها من المنارة ثلاثين مرة[٣]... إلا ليعلم أنه لا كبير في الدنيا وأن من كان مع الله لم يبال شيئاً: لا الملك ولا المرض ولا الوحش، فلو أن المسلم عرف معنى هذه الكلمة وهو يقولها ما عرف الذل ولا الجبن ولا الكسل.

قال رجل من طرف الحلقة:

فإن قتله الملك يا سيدي الشيخ، أو أماته المرض؟

فقال الشيخ: سبحان الله! وهل يهاب المسلم القتل؟ أو يبغض الموت؟ إن الموت شديد لأنه انقطاع اللذات، وخسران الدنيا، ولكنه لا يكون بهذا المعنى إلا عند الكافر الذي يعيش في الدنيا، ويستمتع بملاذها، أما من كان يتهيأ فيها للعيشة الخالدة ويقيم فيها كالمستعد للسفر، ويرقب ساعته كما يرقب المسافر ساعة القطار، ويراه حين يمضي ليلقى ربه، كالآيب إلى وطنه حين يذهب ليلقى أهله وصحبه... من كان هذا شأنه لا يرى في الموت موتاً، وإنما يرى فيه

---

(١) ساعة يسيرة.

(٢) إن صلى الصلوات المفروضة ١٧ ركعة كل يوم وذلك ما لا يكون المسلم مسلماً إلا به.

(٣) في كل أذان ست مرات.

ولادة جديدة ، وابتداء حياة ، وقد حفظنا من مشايخنا : أن أفضل الشهداء رجل يقول كلمة حق عند إمام جائر فيقتله بها . . .

وكان الباشا قد وقف على الحلقة منتفخاً ، مصعِّراً خده ، شامخاً بأنفه ، نظر إليه الشيخ رحمه الله فلم يتغير ولم يبدُ عليه أنه رأى فيه أكثر من رجل وأشار إليه أن اجلس كما كان يفعل بغيره ، فلم يتمالك الباشا أن جلس . . . ونظر في الحاضرين يقلب فيهم بصره ، يفتش عن شيء أضاعه فيهم عن الخضوع والإكبار اللذين تعود أن يراهما حوله دائماً ، ينتظر أن يقوموا له ، وأن يقفوا بين يديه صفاً ، ولم يدر أن القوم كانوا في غير هذا . لم يدر أن الشيخ قد علا بهم ، حتى جعلهم يطلون[1] على الدنيا من شرفة طيارة ، أو من قطع السحاب فيرون الأرض كلها كمفحص قطاة[2] ، ولا يرون في الباشا العظيم إلا نملة . . . فمن ذا الذي يحفل بنملة . . .

وأجال الباشا نظره فيهم حتى علق برجل الشيخ ، وكانت ممدودة نحوه ، فأثار مرآها كبرياءه وسلطانه ، ورأى فيها علامة تعجب أضيفت إلى عظمته وجلاله ، إضافة سخرية وتهكم ورآها كبيرة في عينه ، وحس كأنما هي في عينه ، ونظر في الحاضرين ألم يجرد واحد منهم سيفه يتقرب إلى الباشا بقطّها[3]؟ وكان الباشا ينظر بعين بصره المادية لم تفتح بعد عين بصيرته المعنوية ، فيفاضل بين قصره وسريره ، ومكان الشيخ وحصيره ، وبين جنده وأعوانه ، وتلاميذ الشيخ وإخوانه ، فيوقن أن دنيا الشيخ كلها لا تثبت لحظة لسيفه الذي لم تثبت له دنيا الخليفة العثماني (إمبراطور الشرق) . . .

وكـان كـالأسـد الـذي زعمـوا أنـه مـر علـى قنبلـة مـن القنـابـل

---

(١) يشرفون.

(٢) الموضع الذي تفحص القطاة التراب عنه لتبيض فيه.

(٣) بقطعها.

المدمرة[١]. . . ملقاة في أجمته فعجب منها وحقرها وقال: ويحك أي حيوان أنت؟ يا للضعف والمهانة! أين الأنياب؟ أين المخالب؟ أين. . . أين. . . ؟ يا للهوان ماذا يصنع بأهله؟ قالوا ثم ركلها[٢] برجله ، فانفجرت القنبلة وانفجرت القنبلة من فم الشيخ فرجع يتكلم.

قال: ومن عجيب صنع الله في الإنسان أن خلقه حيواناً كالحيوان ، ولكنه وضع فيه ملكاً ووضع فيه شيطاناً ، فمن كان همّه من دنياه لذتا بطنه وفرجه ، وابتغاهما من حل ولم يعرف غيرهما لم يكن فيه إلا الحيوان ، فهو يرتع كما يرتع الحمار ، ويتبع غريزته كما يتبع. ومن كان همه اللذة من حل وحرمة ومن كان لا يبالي ما اجترح من السيئات لم يكن فيه إلا الشيطان ، وكان العقرب والخنفساء[٣] خيراً منه ، لأن مصيرهما إلى التراب ومصيره إلى النار. ومن كان همه أن يعيش في هذه الحياة كما يعيش في مدرسة يتلقى فيها أساليب الكمال ، ليعيش من بعد في أساليب الكمال ، فهو الإنسان حقاً. . . .

ومن عجيب صنع الله في الإنسان أنه وضع في نفسه الملَك ، فلا يحتاج مهما كان ضالاً فاسقاً ظالماً إلا إلى تنبيه الملك في نفسه ، ليطرد الشيطان ، ويقود الحيوان ، فلست أنت الذي يعظه ولكنه يعظ حينئذٍ نفسه ، وهذا معنى قولهم:

لا تنتهي النفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

وذلك ثوابه في الجنة ، والجنة لا تكون بالتشهي والأمل ، ولكن بالجد والعمل. ولو أن تلميذاً أمضى عامه في لعبه ولهوه ، ثم تمنى النجاح ، أكان ينجح؟ ولو أن صياداً ألقى بندقيته فلم يضرب بها ورمى شبكته[٤] فلم

---

(١) المهلكة.

(٢) ضربها برجله.

(٣) دويبة سوداء أصغر من الجُعَل كريهة الرائحة.

(٤) شركة الصياد.

ينصبها ، ثم حلم بالقنيصة ، أكانت أحلامه تعدو في أثر الغزال حتى تأتي به مكتوفاً؟ أم كانت السمكة تأتيه وحدها وعلى ظهرها الملح والفلفل تقول له : كُلني؟

قال رجل : ولكن القلوب قست يا سيدي الشيخ! فما علاجها؟

قال : إن الشيطان لا يأتي إلا من إشعاره الكمال ، فأشعر نفسك النقص ، وذكرها في الصحة المرض ، وفي الحياة الموت ، ولقد أدركنا من مشايخنا إذا قسا قلبه أمّ المستشفى أو قصد المقبرة ، فخوف نفسه المرض وذكرها الموت. والمؤمن لا يزال بخير ما زال بين الخوف والرجاء ، فإن لم يخف أو لم يرج فقد هوى. . . ولقد سمعنا أن منهم من كان يدني يده من المصباح ويقول : يا نفس! إن لم تصبري على هذا فكيف ويحك تصبرين على نار جهنم؟ وإن المؤمن ما ثارت في نفسه شهوة إلا أطفأها بأنهار الجنة ، أو أحرقها بنار جهنم فاستراح منها. . . .

وما الإنسان لولا العقل؟ وكيف يكون العقل إن لم يكن معه الإيمان؟ إنه لا يكون إذن إلا كما قالوا : أوله نطفة مذرة[١] ، وآخره جيفة قذرة ، وإن للسلطان لسكرة فمن أسكره سلطانه وعزته على الناس ، فليذكر هوانه على الله ، وأن الله أهلك أشد الملوك : النمرود ، بأضعف الخلق : البعوض.

فيا مَنْ أصله من التراب ، لا تنس أن نهايتك إلى التراب.

وكان الباشا يشعر والشيخ يتكلم ، كأنه كان محبوساً في صندوق ، ثم فتح عينيه فنشق[٢] الهواء الطلق[٣] أو كأنه كان في ظلمة فاحمة[٤] فطلع

---

(١) أي خبيثة وفاسدة.

(٢) شم.

(٣) أي صاف خال عن الغبار.

(٤) السوداء أي الشديدة.

الشيخ عليه شمساً نيرة فتضاءل[١] حتى جلس على ركبتيه ، ورأى نفسه دون هؤلاء كلهم ، لأنهم ألصق منه بالشيخ وأدنى إليه ، ولم يعد يزعجه مرأى الشيخ وهو ماد رجله . . بل كان يراه الغريق ويراها خشبة النجاة وكان يبصرها عالية كجناح النسر المحلق[٢] ، ثم لم يعد يرى فيها شيئاً ، لقد استحال الشيخ في نظره إلى فكرة . . . . لم يعد يرى فيه إلا الحقيقة تمثلت إنساناً .

قال الراوي : فلما ذهب الباشا ، بعث إلى الشيخ بكيس فيه ألف دينار من الذهب العين . فلما جاءه به الرسول وألقاه بين يديه تبسم الشيخ رحمه الله ورده إليه ، وقال له : سلم على سيدك وقل له : إن من يمد رجله لا يمد يده . . . .[٣] .

* * *

(١) صغُر وضعُف .
(٢) الذي يرتفع في طيرانه ويستدير كالحلقة .
(٣) قصص من التاريخ .

فهرس الموضوعات

المترجمون في الكتاب

ہماری مطبوعات

(عمدہ کاغذ۔ بہترین طباعت)

شمار	اسمائے کتب
۱	قصص النبیین اول
۲	قصص النبیین دوم
۳	قصص النبیین سوم
۴	قصص النبیین چہارم
۵	قصص النبیین پنجم
۶	القراءۃ الراشدہ اول
۷	القراءۃ الراشدہ دوم
۸	القراءۃ الراشدہ سوم
۹	معلم الانشاء اول
۱۰	معلم الانشاء دوم
۱۱	معلم الانشاء سوم
۱۲	مختارات اول
۱۳	مختارات دوم

شمار	اسمائے کتب
۱۴	منثورات
۱۵	الادب العربی
۱۶	شرح شذور الذہب
۱۷	الفقہ المیسر
۱۸	قطر الندی
۱۹	زعیمان لحرکۃ الاصلاح
۲۰	تہذیب الاخلاق
۲۱	شذیٰ العرف
۲۲	مسلم شریف اول
۲۳	مسلم شریف دوم
۲۴	علم التصریف
۲۵	تمرین النحو

ناشر

مجلس صحافت ونشریات

ٹیگور مارگ، ندوۃ العلماء، لکھنؤ

ملنے کے پتے

☆ مجلس تحقیقات ونشریات اسلام، ندوۃ العلماء، لکھنؤ
☆ مکتبہ ندویہ، ندوۃ العلماء، لکھنؤ
☆ مکتبہ الفرقان، نظیر آباد، لکھنؤ
☆ مکتبہ احسان، حسن منزل، مکارم نگر، لکھنؤ
☆ مکتبہ شباب، شباب مارکیٹ، ندوہ روڈ، لکھنؤ
☆ مکتبہ دارین، نزد شباب مارکیٹ، ندوہ روڈ، لکھنؤ